

أضواء على النضال الصحفي للشيخ عمر راسم

د.خير الدين شترة

قسم التاريخ/ جامعة المسيلة- الجزائر

ملخص:

إن النخبة المثقفة من الجزائريين فيما بين القرنين (19-20)م، والتي كانت لها علاقة علمية وفكرية وأدبية بنخبة المشرق العربي قُدر لها أن تترك بصماتها واضحة جليلة في المجالات الفكرية والأدبية وكانت بمثابة همزة الوصل الوثقى بين الجزائر وغيرها من الأقطار. ومن الكتاب الجزائريين الذين اجتهدوا في طلب الحقوق الشخصية والمدنية للأهالي الجزائريين ودعوا إلى النضال التربوي والفكري والعلمي وإحياء العلاقات القومية والوحدة الإسلامية "الشيخ عمر راسم" فعلى الرغم من غلبة الاتجاه الوطني على أفكاره فإنه لم ينس قضايا الأمة العربية الإسلامية، وسنسلط الضوء أو بعض الأضواء في هذه الورقة البحثية على مجالات مختلفة وجوانب متباينة من مساهماته الصحفية ونضالاته الجمعوية استناداً إلى جملة مقالاته الكثيرة التي عثرنا عليها سواء في صحفه الصادرة باسمه أو الصحف الأخرى (الوطنية والدولية) التي نشر فيها.

Abstract :

Algerian elites of the 19th and 20th centuries contributed some considerable efforts towards cultural renewal in very exceptional circumstances. Omar Racim is one of these elite members since he asked for Algerians' civil rights during French colonial rule over Algeria. This article sheds interesting aspects about Racim's nationalistic vision.

المقدمة:

بذل الكتاب الجزائريون في مطلع القرن العشرين جهوداً مضنية وصادقة لمجاهرة الاستعمار بأرائهم الصريحة وتعريفه بواقع الشعب الجزائري المتطلع أبداً

إلى الحرية، المعترف بالانتماء للعروبة والإسلام، وعوض أن يأخذ الاستعمار هذه الأفكار بعين الاعتبار ويسترشد بها في حكمه فيتجنب أكثر من صدام مع الشعب، نراه يوجه تهمة التحريض على العصيان أكثر من مرة إلى دعاة هذه الأفكار معتبراً إياهم أعدائه يحولون بينه وبين ترسيخ فكرة الإدماج التي كان يسعى إلى تحقيقها، وفي تحدي واضح لسياسة المستعمر عالج كتاب هذه المرحلة القضايا الملحة التي كان الواقع الجزائري يواجهها في تلك الفترة ومنها: قضية التجنيد الإجباري وموقف المسلمين منها وكذلك قضية التصدي لغلاة المعمرين ومن يواليهم من الخونة ومناقشتهم وفضح آرائهم العنصرية الزائفة أمام الرأي العام الذي أجبر على سماع وجهة النظر الواحدة-وجهة النظر المعادية- إمعاناً في اضطهاد الشعب وإرهابه.

ومن هذه القضايا أيضاً قضية انتماء الشعب الجزائري إلى الحضارة العربية الإسلامية وهو انتماء دأب المستعمر على التشكيك فيه، وبذل مختلف الجهود لتعميق الهوة الفاصلة بين الجزائري وبين هذا الانتماء العربي الإسلامي، ولم يغفل هؤلاء الكتاب أيضاً طرح بعض القضايا الجزئية العارضة كقضية عدم وعي بعض الصحف العربية المشرقية لأبعاد النضال الوطني الجزائري...، على أن أهم قضية طرحها الكتاب الجزائريون من خلال أداة الصحافة في هذه المرحلة تمثلت في دعوتهم الجريئة والشجاعة إلى وجوب تحلي الجزائريين بروح الوطنية والبذل ونكران الذات. وبهذا كان كتاب المرحلة الأولى هم أول من واجه بصورة مباشرة مخططات المستعمر، وهم أول من يوضح للقارئ العربي عامة والجزائري خاصة الحقائق الخفية ويتصدى لمعالجتها بأناة وصبر أفقد المستعمر صوابه. ولعل أجلى مثال في النضال والصبر من كتاب هذه المرحلة هو الشيخ عمر راسم الذي نال من السجن والعذاب النفسي المروع ما ناله خصوصاً خلال الفترة التي أعقبت الحرب

العالمية الأولى حيث توقف قلمه الصحفي عن الكتابة والنقد والتتوير بعد أن انتهت جهوده إلى اليأس والفراغ، وكان هذا ثمناً باهظاً يدفعه جزاء ما أظهر من روح وطنية عالية ساهمت في بروز أول نهضة فكرية وسياسية وأدبية وصحفية في الجزائر مع مطلع القرن العشرين.

1. الحضور الفكري والأدبي المبكر للجزائريين:

قد يفاجأ بعض أشقائنا العرب بأن تيارات سياسية وفكرية وأدبية وأحداثاً هامة وقعت في بلادهم خلال العصر الحديث كان ورائها عناصر جزائرية، ولولا أن عنايتنا في هذه الدراسة منصبة على النضالات خلال القرن العشرين فقط لوجدنا في العصور السالفة أيضاً أحداثاً وتيارات ومؤلفات تقف ورائها عناصر جزائرية، ولذلك يحق ربما للجزائريين أن يشتكوا من إغفال دورهم في حياة الأمة العربية والإسلامية، فما السر يا ترى في هذا الإغفال؟ ربما كان الجواب بالنسبة للتاريخ المعاصر يكمن في سيطرة الروح القطرية التي ظهرت منذ أكثر من نصف قرن، وربما نجد الجواب في تغليب دور الأغلبية على دور الأقلية كما هي القاعدة تقريبا عند مختلف الشعوب وأخيرا قد يكون الجواب في تواضع الجزائريين الطبيعي وعدم نسبة الأحداث إلى أنفسهم وعزوفهم عن تسجيل مساهماتهم وإبرازها إعلاميا ووجاهة.

ويظهر هذا التواضع الجزائري في إسناد ما حدث في بلادهم نفسها إلى عناصر وتأثيرات خارجية وبالذات المشرقية فإذا تحدثوا عن حركتهم الوطنية ذكروا أن زعماء مشارقه كان لهم دور في تبني هذه الحركات مثل الأمير شكيب أرسلان، وإذا ذكروا النهضة الإسلامية أشاروا إلى زيارة الشيخ محمد عبده لهم عام 1903م، وإذا وصل الحديث إلى الفن تبادر إلى الأذهان حلول الفرق الفنية

والمسرحية التي قادتها فاطمة رشدي ويوسف وهبي وجورج أبيض وسامي الشوا، أما الزعامات الجزائرية في السياسة والدين والإصلاح والفن فلا قيمة ذاتية لهم عند قومهم إلا إذا رحلوا إلى المشرق وأدوا فريضة الحج وأخذوا العلم في الزيتونة أو الأزهر وانتموا إلى جمعيات مشرقية أو نوّه بهم زعيم مشرقى (كما حدث للمقولة القصيرة التي وصف فيها شكيب أرسلان مصالي الحاج عام 1935م بالتضحية، والتي ظلت محور العمل الدعائي والإعلامي للنجم والشعب من بعده، رغم بساطة التعبير والوصف).

السؤال المطروح هو: كيف بدأ الحضور الفكري والأدبي للجزائريين خلال هذه الفترة في الفضاءين الوطني والعربي، ومن ثمة إسهامهم في فترة القرن العشرين؟ إن الجواب عليه كان يظهر في الغزو الأوروبي المبكر للجزائر، وقد ترتب على هذا الغزو هجرة المثقفين والسياسيين الجزائريين إلى بلاد المشرق لأسباب متنوعة، وأثناء مرحلة حاسمة من تاريخ الهجرة الجزائرية والاستقرار والاندماج في المجتمع العربي والثقافة العربية ظهر أعلام جزائريون استطاع بعضهم أن يؤدي دوراً في الحياة العامة باعتبارهم جزءاً من حركة المجتمع أثناء يقظته، وقد كان لهؤلاء الأعلام مواقف ومداخلات ونود أن نرصد بعضها في شخص علم من الأعلام ومجتهد سبق عصره وزمانه، وقبل ذلك نود أن نشير إلى أننا لن نسهب في تفصيل سيرته الشخصية ولا في ذكر كل مواقفه وتحليلها مكتفين في أغلب الأحيان بذكر العناوين والعناصر الأساسية تاركين الغوص لغيرنا ممن لهم وثائق أوفر وتخصص أدق، كما أن تركيزنا سيكون على نضاله الصحفي فقط والذي توقف كما هو معروف عند سنة 1921م حيث لم نتلمس له نشاطاً صحفياً (تأسيساً ونشراً) بعد هذا التاريخ في كلا المستويين (المحلي والخارجي) باستثناء:

مقال واحد في جريدة النجاح عام 1939م¹، وآخر بمجلة السعادة المغربية «لم نعر عليه»، ومقال واحد نشره بصحيفة المباحث التونسية سنة 1945م بعنوان: (الموسيقى الأندلسية)². كما أنه ساهم بنشر عدد من المقالات في فن الرسم والزخرفة في صحيفة هنا الجزائر خلال الفترة (1954-1957)م، وهذه كلها لا علاقة لها بإشكالية موضوعنا، إلا إذا اعتبرنا تخطيطه ورسمه لبعض الصحف والنشريات الصادرة حينها عملاً صحفياً لا نشاطاً فنياً يدخل في إطار الزخرفة والمنمنمات التي أبدع وتميز فيها. فحسب مراسلة خاصة مكتوبة باللغة الفرنسية كان قد أرسلها إلى أخيه محمد مؤرخة في سنة 1919م³، فإنه قرر ألا يكتب في الصحافة النضالية ولن يؤسس أي جريدة بعد خروجه من السجن وهو الذي كان، حيث انصرف بعد سراحه من السجن إلى الحياة الفنية وأعطى نفسه للخط والرسم، وعندما أنشأت في العاصمة سنة 1931م مدرسة لتعليم فن التصوير والزخرفة العربية والشرقية اختير هو وأخوه محمد ليُدرسا فيها الخط العربي والزخرفة والمنمنمات؛ فباشرا التعليم فيها وتخرجت على يديه نخبة من شباب الفن الجيدين⁴، وما زال عمر راسم بين أستاذيته للرسم ومقالاته في الصحف الفنية وأحاديثه الأدبية والثقافية في الإذاعة ومعارضه الفنية⁵ المرتبطة أساساً بإسهاماته في فن الزخرفة

1 - النجاح، ع2242، 1939/01/26م

2 - المباحث، 1945/04/13م

3 - محمد ناصر، عمر راسم المصلح الثائر، الجزائر، مطبعة لاقوميك، ب.ت، ص16

4 - للتوسع راجع ما كان يكتبه في مجلة هنا الجزائر، خصوصاً: ع74، مارس 1957م.

5 - أنظر في هذا الصدد: - المباحث، 1945/08/20م

العربية والشرقية إلى أن توفاه الله بعد مرض عضال عذبه طويلاً وذلك يوم 13 فيفري 1959م حيث دفن بمقبرة سيدي الثعالبي بالجزائر العاصمة¹.

وإذا أخذنا بالفكرة القائلة بأن الثورات المسلحة يفجرها الكتاب بأقلامهم، ثم تجد بعد ذلك طريقها إلى الساحات والميادين فإن الثورة الجزائرية التي عاشت مخاضاً هائلاً، وتمرّست بالعصيان المسلح في العديد من الفترات كانت من أهم الثورات التي مهد لها الكتاب بنشاط حثيث دون ملل من شدة الوصب، كما كانت من بين أهم الثورات التي أستهشد فيها الكتاب والمؤلفون والشعراء على أيدي المستعمر حين أبوا أن يصمتوا وفضلوا الحوار المسلح عن السكوت المذهّب؛ كما يمكن أن يضاف إلى قائمة الكتاب الشهداء الذين سقطوا برصاص المستعمر، شهداء آخرين كان استشهادهم أشد إيلاماً حين أجبروا على قبول الموت وهم أحياء بسبب آرائهم المناوئة للاستعمار، فكان موت عمر راسم مثلاً للاستشهاد البطولي وكذلك عمر بن فذور وإبراهيم أطفيش وآخرون من المناوئين بآرائهم أو بالأحرى المناوئين بأنفسهم ممن أطبقت عليهم قبضة المستعمر ولوحقوا وأوذوا، وأشتط في تعذيبهم ووجهت إليهم نفس التهمة، تهمة النشاط الفكري والثوري الذي كان المستعمر يتحسب له ويُقدر خطره الجسيم مهما تباعدت مواطن الشر، وترامت المسافات.

2. عمر راسم الإنسان (حياة كفاح):

ولد عمر راسم سنة 1883 أو 1884م حسب التقويم الهجري الذي تبناه محمد عابد الجلاي¹ في مؤلفه تقويم الأخلاق (1302هـ)² وهو أصيل بجاية

1 - محمد ناصر، عمر راسم، ص 17

وحسب صنهاجة لأنه كان يوقع اسمه بأبو منصور الصنهاجي أحياناً، ويذهب محمد شريفي إلى أن أصول عائلة راسم تركية وأن اسم (راسم) موجود في تراجم الخطاطين الأتراك، كما ذهب إلى أن والده علي راسم المتوفي سنة 1917م بالجزائر كان من كبار الرسامين والخطاطين³، فهو عمر راسم بن علي بن سعيد بن محمد، ومنذ وقت مبكر أدخله والده كتاب بابا عثمان بالعاصمة لحفظ القرآن الكريم، فحفظه وهو ابن سبع سنوات، ثم ألحقه والده في وظيفة حزاب، وهو ابن اثني عشرة سنة، وهي وظيفة لم يبق منها الكثير في نهاية القرن التاسع عشر بعد أن انحصرت الوظائف الدينية في عدد من العائلات وهُدمت أغلب المساجد أو عُطلت⁴، كان راسم إذن حزبياً في جامع سفير وفي هذا الجامع تلقى أيضاً دروساً في النحو على يد الشيخ محمد بن مصطفى خوجة كما التحق عمر راسم بمدرسة الجزائر الشرعية الفرنسية (الثعالبية) ولكنه لم يقض فيها سوى سنة واحدة ثم أخرج منها في ظروف غامضة، كما ذكر محمد ناصر أنه قد درس فن الزخرفة العربية مدة طويلة بمدرسة الفنون الجميلة بالعاصمة بجانب أخيه الفنان محمد راسم⁵.

ذلك كل ما تلقاه عمر راسم من ثقافة رسمية: القرآن الكريم، ودروس في النحو، وسنة في مدرسة تعلم مبادئ العلوم العربية والإسلامية وبعض اللغة

¹ - العقبي (أحمد بن العابد)، (ت بعد 1926)م. أديب، ناظم، له اشتغال بالصحافة، من أهل سيدي عقبة تعلم بالزاوية العثمانية، بدأ نشر قصائده سنة 1921م في جريدة الصديق، ثم أصدر جريدة صدى الصحراء (1925)م.
² - العابد (الجلالي)، تقويم الأخلاق، قسنطينة = المطبعة الإسلامية، جانفي 1927م، ص 22- راجع أيضاً- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ط2، بيروت، مؤسسة نويهض الثقافية، 1980، ص243
³ - محمد (شريفي)، اللوحات الخطية في الفن العربي المركبة بخط الثلث الجلي، أطروحة دكتوراه، معهد التاريخ- جامعة الجزائر.

⁴ - سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، الجزائر: دار البصائر، 2007م، ص 284

⁵ - ناصر (محمد)، عمر راسم : المصلح الثائر، "الثقافة"، ع 34، الجزائر = أوت / سبتمبر 1976م. ص 67

الفرنسية بالإضافة إلى ما تعلمه مع أخيه محمد من فنون للزخرفة العربية، ولكنه كان طموحاً موهوباً فعزم على تثقيف نفسه، سيما وأنه قد عاصر بداية الصحافة وانتشار مدرسة التجديد الإسلامي وحركة الجامعة الإسلامية. وكان قد بلغ من العمر 18 سنة على الأقل عندما زار الشيخ محمد عبده الجزائر سنة 1903م، كما عاش الأحداث التي جرت بين اليهود والفرنسيين أواخر القرن التاسع عشر عندما كان "ماكس ريجيس شيخاً لبلدية العاصمة ولعل ذلك هو الذي لفت نظره إلى وضع اليهود في الجزائر الذين جنّسهم الوزير اليهودي كريميو سنة 1870م¹، وكان من الطبيعي أن يعارض عمر راسم فرض التجنيد الإجباري على الجزائريين وأن يقف في ذلك مثل زميله عمر بن قدور² ضد الفئة الاندماجية التي قبلت بالتجنيد بشرط كسب الحقوق السياسية غير ناظرين إلى مسألة الدين والرابطة الإسلامية والعلاقة مع الخلافة.

وعلى الرغم من حادثته، وما يلاقيه الوطنيون من طرف الاستعمار الفرنسي آنئذٍ فإنه تحمّل تكاليف سفر شاق إلى كل من مصر (عام 1909م) رغبة منه في الاطلاع على أحوال المسلمين بها والتفاوض مع زعمائها فيما يعود بالصالح العام على العالم العربي والإسلامي³، والتاريخ الذي ذهب فيه إلى مصر يُعد تاريخاً

7- سعد الله، المرجع السابق، ص 286

² - بن قدور (عمر)، (1886-1932م)، ولد بمدينة الجزائر، حيث تعلم بالكتاب ثم بمدرسة الثعالبية، عرف باتجاهه الإصلاح ونشاطه الصحفي، كما التحق بجامع الزيتونة بعد عودته أنشأ جريدة الفاروق. وبسبب مواقفه القومية نفي إلى الأغواط قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى التي انتقل إليها برجلين مكبلين، أطلق سراحه عام 1918م، بعدها عاد إلى نشاطه الصحفي من خلال جريدة الصديق لكنه لم يلبث أن اعتزل ودخل في عزلة صوفية، من مؤلفاته: الإبداء والإعادة في مسلك سائق السعادة.

³ - ناصر محمد، المرجع السابق، ص 67

ملفتاً للنظر ذلك أن قانون فرض التجنيد الإجباري قد صدر فيه، وكانت السلطات قد منعت الهجرة إلى المشرق بالقوة على الجزائريين المناوئين لها، ومهما كان الأمر فإن "التأويلات" قد أعقبت مهمة عمر راسم في مصر ولا أحد يستطيع أن يمنع الخيال من أن يخلق، فالبعض قال: إن رحلته كانت لغرض سياسي حكومي، وقال آخرون: إنها كانت لطلب العلم والاطلاع!! على أننا لا نعرف كم دامت هذه الزيارة لمصر، وهل تواصلت إلى غيرها أيضاً، لأن تاريخ عودته قد يعطينا تفسيراً لسبب سفره أصلاً، فقد يكون الدافع هو محاولة الفرار بداعي الهجرة وطلب العلم من أن يجتد في الجيش الفرنسي ضد إخوانه المسلمين في الجيش العثماني؟! وقبل أن يتحقق حلم عمر راسم في استقلال وطنه الذي طالما استنهبه بقلمه وخطابه انطفأت شمعته بالعاصمة عن 75 سنة، كان ذلك عام 1959م وقد كانت البلاد في ثورة عارمة ضد المحتل وكانت تباشير النصر قد أخذت تلوح في الأفق.

إن العذاب النفسي الذي عاشه عمر راسم أواخر حياته وكفرانه بالحياة والناس - إذا صح ما وصفه به أحمد توفيق المدني¹ - هو إلا نوع من الإرهاق والوهن الجسمي واليأس من طول الحياة التي عاشها مفعمة بالأسى والصدمات وليل الاحتلال الطويل الذي لم يسفر بالنسبة إليه إلا عن المرارات والأحزان والنكبات؛ إن الوصف الذي أعطاه له توفيق المدني: «إلحاد بالله والإنسان وتشاؤم هالك، قتل كل أمل في نفسه»² لا يمكن تفسيره إلا أن عمر راسم كان مثلاً نادراً للتصميم والتضحية ولقد قام بدور ممتاز للدفاع عن القضية الوطنية الجزائرية والقضايا الإسلامية بوجه عام.

¹ - المدني (أحمد توفيق)، حياة كفاح (مذكرات)، ج2، الجزائر: الشركة الوطنية الجزائرية للنشر، 1976م، ص53.

2 - نفسه.

وبخصوص هذه القضية التاريخية المتعلقة بحياة عالم ومتقف متميز والتي انفرد بوصفها الأستاذ توفيق المدني لوحده وكعادته لا يمكن أن نتجاوزها من دون التنبيه إلى أن قناعتنا بصدقية النضال الطويل الذي قضاه الشيخ عمر راسم في الدفاع عن دينه ولغته وقوميته منذ مطلع القرن العشرين استناداً إلى رصيده الديني والروحي والقرآني تجعلنا نشك في رواية الأستاذ توفيق المدني من أن الرجل وفي مرحلة من مراحل حياته قد ألحد بالله وتشاءم من واقعه المرير.

لقد وردت هذه الرواية في مذكرات المدني (حياة كفاح) والتي أعقبت زيارته للعاصمة في مطلع الثلاثينات عندما التقى به، وعلى افتراض أن هذه الرواية صحيحة فكيف نفهم مقولة الشيخ السعيد الزاهري الشهيرة حوله قبل عام 1934م -أي أن الفارق الزمني بين الروایتين ضئيل- في كتابه (الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير)¹ عندما وصفه بأنه رجل قرآني ومفسر جيد، قام بتفسير القرآن الكريم في السجن وتحت سياط الجلادين. فهو عند المدني ملحد وعند الزاهري قرآني ومؤمن بالله، ورغم أننا نقف على مسافة واحدة من كلتا الروایتين، فإننا وعلى بضع صفحات من كتاب المدني السابق نجد انفراداً آخر للمدني حول وصمه للشيخ العالم عبد الحليم بن سماية بالجنون عندما منع عنه الصبية وهم يلاحقونه في أزقة مدينة الجزائر. وهو ما يجعلنا لا نثق كثيراً في مقولة المدني هذا من جهة. ومن جهة أخرى لا يمكننا إنكار أن ما طرأ على العصر من أحداث وعلى صحته من إرهاب وهبوط وكبر؛ أفاء على نفسه مسحة من يأس المنكوب المفجوع الذي لم يعد يملك الحول للدفاع عن الوطن ولا الصولة للدفاع عن النفس في

¹ - الزاهري(السعيد)، الإسلام في حاجة إل دعاية وتبشير، ط2، دمشق: مطبعة الاعتدال، 1934، ص30

عصر تشعبت فيه الأحداث السياسية وارتبكت، وكان لابد من ظهور جيل جديد يحمل الرسالة ويواصلها في أناة ومسؤولية وفي حب وتعلق بذلك الإرث التاريخي من النضال.

وقد أورد الأستاذ محمد ناصر في كتابه (عمر راسم المصلح الثائر) مراسلة خاصة مكتوبة باللغة الفرنسية كان قد أرسلها إلى أخيه محمد مؤرخة في سنة 1919م عندما كان في السجن¹، ذكر فيها معاناته وتعبه لكنه لم يذكر فيها أنه ألد بالله والإنسان وتشاء تشاؤماً هالكاً من الحياة وما فيها وفي ذلك يقول: «إني الآن أعيش الفترة الأكثر صعوبة في حياتي، إن اللحظة التي أستطيع فيها التنفس لم تحن بعد فهل أستطيع تحمل هذه الوضعية التي لا تطاق؟ هل أستطيع العيش في هذه المحنة القاسية؟ لمن أتوجه؟ لمن أشكو؟ حتى البكاء الذي سيخفف عني لا أستطيعه لأن ذلك يجب أن يكون بعد إذن. هيهات إن المنية لا تريدني إذ أن دنوها هو مطلبي وسعادتي، ولكن السعادة محرمة عليّ دائماً.....»². إن هذه الظروف التي مرّ بها مترجمنا جعلت منه رأس الحرية التي سددت للاستعمار، وهي نفسها التي أذاقته طعم الكأس المريرة التي أدارها الاستعمار عليه، إذ حوكم عليه بالتهمة المعروفة آنذاك وهي: تجاوز القوانين، والتطاول على السلطة، واستغلال الصحافة كمنبر للتهيج والتثوير.

ولعله من المفيد هنا أن نشير إلى الروافد الثرية التي أغنت ثقافة راسم وكونته، هذا التكوين الرائع الذي يجمع بين الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة والثقافة الأجنبية المفتحة، فأول روافده هو القرآن الكريم فقد حفظه حفظاً جيداً وهو

1 - محمد ناصر، عمر راسم المصلح الثائر، الجزائر، مطبعة لافوميك، ب.ت، ص 16

2 - نفسه، ص 17.

ما يزال في السابعة من عمره، وقضى بقية حياته مداوماً على مراجعته معنياً بتجويده عارفاً لقواعده وقراءاته بل أنه حاول وهو في السجن أن يفسر تفسيراً رآه الزاهري تجديداً في التفسير لو أكمله لأفاد به المسلمين¹.

أما الرافد الثاني، فهو تفتحه على الإنتاج الفكري الإنساني وإطلاعه الواسع على الحركات التحريرية العالمية واستفادته منها، فقد فتح له هذا التتبع المفيد نوافذ واسعة على المعرفة تشربها تشرباً عميقاً، وعرضها على الأحداث المعاصرة، ولا سيما ما يمت بصلة إلى الوطن العربي والإسلامي، ثم وبلا شك فإن اتصاله بالمفكرين والزعماء في الشرق وفي الغرب كان له تأثير على أفكاره ونظرياته². قال عنه السعيد الزاهري³: «أنه رجل من أبرز الناس بالإسلام ومن أكثرهم علماً به، وأنا لست أعرف عن الإسلام أكثر مما يعرف الأستاذ راسم، وقد فسّر الجزء الأول من القرآن الكريم تفسيراً إذا أنت قرأته عرفت أن العلم موهبة يهبها الله من يشاء من عباده، وهو يُعد من قادة الفكر في الجزائر جاهد في سبيل الجزائر المسلمة وأوذي في الله، ودخل السجن ولبت فيه سبع سنين وهو أول رجل في الجزائر (فيما نعلم) حارب التفرنج والإلحاد بما كتبه بلغة القرآن وبلغة الفرنسيين»⁴.

3. القضايا الاجتماعية والسياسية الوطنية في نضاله الصحفي:

¹ - نفسه، ص30.

² - ناصر محمد، المرجع السابق، ص(76،77)

³ - الزاهري (محمد السعيد)، (1900-1956)م. ولد بقرية ليانة، تتلمذ على يد الشيخ بن باديس في قسنطينة. ثم درس بالزيتونة وحصل على شهادة التطويع سنة 1924م. شارك في الحركة الإصلاحية، وكان عضواً بارزاً في جمعية العلماء أصدر عدة صحف منها (الجزائر، البرق، الوفاق).

⁴ - السعيد الزاهري، المصدر السابق، ص30.

منذ مطلع القرن العشرين كان للصحافة التونسية شأن الصحافة الشرقية شرف استقبال ثلة من المهاجرين بأقلامهم، وكان أول هؤلاء الكتاب الشيخ عمر راسم، حيث فسحت له الصحافة التونسية صدرها لنشر أفكاره الجريئة المناوئة للاستعمار دونما تحفظ أو خشية متعاطفة معه ومع محنة الشعب الجزائري كل التعاطف ففتحت مقالة راسم التي نشرها بجريدة التقدم 1907/12/26م صفحة من العلاقات الفكرية والوطنية التي توطدت بظهور أجيال من المفكرين الذين ترسموا خطاه وعملوا على تعميق الصلة بين القطرين إلى درجة أننا شاهدنا تكتل جهود النخبتين في أكثر من مناسبة لخوض المعارك الصحفية ضد الاستعمار، ولتأليف جبهة سياسية ووطنية تعبر عن اللحمة بين الشعيين وعن المصير المشترك.

إذن فضل البداية في هذه العلاقة يعود بالدرجة الأولى إلى تلك المقالة الأولى التي نشرها عمر راسم سنة 1907م¹، حيث كانت الجسر الذي مهد لقيام الصلات الفكرية بين القطرين، زادها توطيداً انتشار الصحف التونسية بالجزائر²، مما يُبرر لنا استمرار هؤلاء في الكتابة لهذه الصحف التي يبدو أنها كانت مقروءة في جميع أنحاء الجزائر مثلما يؤكد لنا ذلك الشاعر التونسي سعيد أبي بكر الذي كان قد زار الجزائر في سنة 1927م، وشاهد إقبالاً منقطع النظير على الصحف التونسية كما لاحظ وجود هذه الصحف بالأكشاك مما ذكره ببعض مشاهدتها بتونس³.

¹ - سعد الله، المرجع السابق، ج5، ص285، الذي يذهب إلى أن راسم ممكن أن يكون قد نشر في المرشد وغيره بتونس قبل 1907 أيضاً.

² - الجابري (محمد الصالح)، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس، تونس: الدار العربية للكتاب، 1983م، ص154

³ - لسان الشعب، 1928/10/27

ويبدو أن اهتمام راسم بالحياة السياسية والثقافية هو الذي دفعه إلى أن يجرب الصحافة لأنها وسيلة لنشر الأفكار وتعليم الشعب؛ لهذا جاء عنوان أول مقالاته -على الأرجح- في الصحافة التونسية تحت عنوان «رأي حر، رسالة مفتوحة إلى رئيس الحكومة الفرنسية والوالي العام على الجزائر»¹ وهي عبارة عن رسالة جريئة كان قد وجهها إلى رئيس وزراء فرنسا ووزير حريتها وواليها العام على الجزائر، ورغم الظروف الاستعمارية التي كانت تعيشها تونس فإن الجريدة لم تحجم عن نشر تلك الوثيقة ولم تنهيب من محتواها السياسي الفاضح لأساليب الاستعمار والمعارض لإرادته، لإيمانها بأن كاتبها إنما ألجأته الظروف الخاصة ببلاده للإصداغ بهذه الآراء خارج حدودها، ولقد رأى الوالي العام على الجزائر في هذه الرسالة خطراً جديداً على الأوضاع في الجزائر، ولمس فيها تشهيراً واضحاً بالاستعمار.

هذه الرسالة لم تلبث أن بعثت الحمية في نفس عمر بن قدير وحملته على عصيان إنذار الوالي العام، فاستغل هذه الفرصة للعودة إلى الكتابة والخروج من الحصار المفروض عليه، فكان مقاله أول استجابة لما دعا إليه عمر راسم في رسالته السابقة من وجوب قيام النخبة بدورها في المطالبة بالحقوق الأساسية والوطنية التي يطمح الشعب الجزائري في الحصول عليها في مقابل ما كانت تطالبه به السلطة من الواجبات واللوازم، وقد أظهر هذا المقال «ابتهاج الجزائريين إن لم نقل كلهم بما ورد في رسالة عمر راسم التي اعتبرها الأهالي على إيجازها مُعبرة عما يعتل في صدورهم من الآراء والمطامح وعكس مشاعر اعتزازهم

¹ - التقديم، 1907/12/26

بإنجاب الجزائر أمثال هذا الكاتب الوطني الثاقب البصيرة الذي يتحلى بالشجاعة التي تدفعه للتعبير عن الإرادة الجماعية لشعبه الواقع بين الجهل والكبت¹، نلمس في هذا الرد بالإضافة إلى الاهتمام الشعبي بآراء عمر راسم شعوراً بالمرارة لدى الكاتب وهو يرى قومه في سبات عميق لا يجروون على إصدار جريدة مثل جريدة (التقدم) في تونس أو اللواء في مصر تاركين المجال للصحف الاستعمارية كي تثبث سمومها.

ومنذ سنة 1907م ظل عمر راسم الكاتب على صلة وثيقة بالصحافة التونسية إلى حين تعطيلها في حوادث سنة 1911م (حادثة الجلاز - مقاطعة الترامواي)، فقد كان ينشر رسائله ومقالاته تباعاً في جريدة التقدم طوال سنتي (1907-1908)م، بحكم أنه يُعد من أوائل الجزائريين الدّاعين إلى الأخذ بأفكار الشيخ محمد عبده الإصلاحية فقد سلك مسلك الإصلاح والعمل له منذ البداية فأصدر جريدة الجزائر في 17 أكتوبر عام 1908م، ولم يصدر منها إلا عدنان فقط ثم أغلقتها السلطات الفرنسيّة، بعدها أصدر جريدة ذو الفقار في 5 أكتوبر 1913م، وكانت تحمل تعريفاً موجزاً عنها مفاده أنها: «جريدة عموميّة اشتراكيّة، انتقاديّة، تصدر كلّ يوم أحد»، وجاء في مقدّمتها قوله: «لما سمعنا الإسلام يئنّ من طعنات أعدائه، والوطن ينادي بالويل والحسرة على أبنائه، أنشأنا هذه الجريدة لمحاربة أعداء الدّين، وكشف أسرار المنافقين، وإظهار مكائد اليهود والمشرّكين للنّاس أجمعين، وانتقاد أعمال المفسدين»²، وكان عمر راسم يقوم بأعباء تحريرها وكتابتها ورسم صورها وإخراجها وطبعها بمفرده، ويوقع مقالاته باسم مستعار هو

¹ - الجابري، المرجع السابق، ص 155

² - ذو الفقار، ع1، (15 / 10 / 1913)،

ابن منصور الصنهاجي، وكانت هذه الجريدة جريدة اجتماعية دينية، تدعو إلى اشتراكية إسلامية، وتهاجم الأغنياء الاحتكاريين، الذين لا يشعرون بالشعب الفقير، ويستغلونه بشتى الوسائل، وجاء في افتتاحية عددها الأول «ذو الفقار يبارز الأغنياء المقصرين الذين يريدون أن يجعلوا مخلوقات الله ونظامات (كذا) الكون آلات يستحلون بها منافع لهم»¹.

وهكذا أمكن لهذا الكاتب أن يساهم طيلة الفترة الممتدة من سنة 1907م إلى سنة 1913م مساهمة باهرة في التعريف بأحداث الجزائر الداخلية والكتابة عنها بجرأة وإفصاح في أهم الصحف الوطنية التونسية الصادرة في تلك الحقبة، وكان الجسر الأول من جسور الامتزاج الفكري والتلاحم السياسي، وتوطيد وحدة النضال المشترك ضد المستعمر الواحد إذ مهدت مقالاته لتبادل مستمر للكتابات الأدبية والسياسية وفتحت المجال أمام الكتاب من كلا البلدين للتعريف بقضايا البلد الآخر فسنّ بذلك بادرة التواصل الصحفي والفكري الذي امتد أكثر من نصف قرن تتوارثه الأجيال وتحرص على تركيته²، ولاشك أن هذا التبادل النشط يجسد بنوياه المخلصة نمط الشواغل المشتركة، والرغبة في إظهار القوة التضامن والقوة وهو يهدف كذلك إلى إشعار المستعمر بأن واجهة المعارضة تمتد عريضة من تونس والجزائر، وأن الاستعداد للدفاع عن الكيان العربي المغاربي يتميز بالجد والصرامة. ولقد توفر لدينا جملة من مقالاته التي سنعتمدها في تحليل مواقفه تجاه عدة قضايا وإن كان الغالب عليها هو مناوئة الاستعمار الفرنسي وأذنابه ومن ثم كل

¹ - محمد ناصر، عمر راسم المصلح الناصر، الجزائر: منشورات وزارة الثقافة والسياحة، 1984، ص-ص (18). (24).

² - الجابري، المرجع السابق، ص158.

مظاهر التخلف والفساد والظلم والاضطهاد ... منها مثلاً: رسالة إلى رئيس وزراء فرنسا¹، نصيحة الأخ²، استعمار فلسطين³، صناعة جديدة للسلب⁴، استعمار فلسطين⁵، النزاع الانجليزي الألماني⁶، الجزء من جنس العمل⁷، تهنئة المشير⁸، الموسيقى الأندلسية⁹.

أ / الاتجاه الوطني في نضاله الصحفي:

وانطلاقاً من كتابات عمر راسم في الصحافة الجزائرية أو العربية، فإنه كان دائماً يُشدد على الاتجاه الوطني، ويراه ضرورة أخلاقية ملازمة لوجود الجريدة مثلاً هو ملازم لوجود الصحفي المناضل فالصحف التي لا وطنية لها ليست لها أي قيمة تذكر مادام الوطن بحاجة إلى من يدافع عنه ويخلص له.

ففي مقال له بجريدة المشير¹⁰، توجه عمر راسم بالنصح لكل من يُعد جريدة كما فعل وهو يهنئ الشيخ الطيب بن عيسى بصدر جريدته (المشير)، مغتتماً هذه الفرصة ليُسدي إليه جملة من التوجيهات التي يتطلبها العمل الصحفي في نظره وجملة من النصائح التي تنبغي لكل صحفي وطني قائلاً له : «أرجوكم نعم الأخ أن تجعل مشرب الجريدة انتقادياً وخادمة للدولة العلية، وأن تنتقد عليها في كل ما

¹ - التقديم، 1907/12/26

² - التقديم، 1908/11/30

³ - مرشد الأمة، 1909/07/23

⁴ - مرشد الأمة، 1909/08/06

⁵ - مرشد الأمة، 1909/08/27

⁶ - مرشد الأمة، 1909/09/09

⁷ - مرشد الأمة، 1909/12/05

⁸ - المشير، 1911/01/08

⁹ - المباحث، 1945/04/13

¹⁰ - 1911/01/08م

تراه حسناً... أيها الأخ اعلم أنك جزائري الجد فلا تغفل عن وطنك ودافع عنه بقدر الطاقة ولا تخش في الله لومة لائم، وكن مع نصر الله يكن معك وعلى الوطن يعينك الله، وحب الوطن من الإيمان»¹.

وقد عرف قراء الصحافة في الجزائر خصوصاً خلال تلك الفترة الحرص الشديد والبذل المتواصل في شخصية عمر راسم، كما عرفوا فيه غيرة لا حدود لها على كل ما يمس الكيان الجزائري ولاسيما ما يمس المعتقدات الدينية والدين الإسلامي بالذات هذا الأخير الذي كان مستهدفا لحركات مريبة تارة بالظن في مقوماته الأخلاقية وغاياته الروحية والإنسانية، وأخرى ببث روح الشعوذة والتنمويه على البسطاء والسذج من أبناء الشعب الأبرياء، وكان عمر راسم على دراية واسعة بأساليب الاستعمار وغاياته وكان لا يزعجه أن يصدر ذلك عن رجال السلطة وأتباعهم وأذنابهم، ولكنه يكون أشد على النفس حين يصدر عن رجال الصحافة العربية.

لقد قام عمر راسم بزيارة تونس مرتين، الأولى في سنة 1946م والثانية في سنة 1951، وكان الغرض من كلتا الزيارتين الاطلاع على أحوال المسلمين والتفاوض مع زعمائهم فيما يعود للصالح العام على الوطن العربي والإسلامي²، على أن مجلة المباحث التونسية كشفت لنا بأن هناك دعوة وجهت للسيد عمر راسم قصد زيارة تونس بمناسبة انعقاد مؤتمر الموسيقى العربية في سنة 1938م، إلا أنه اعتذر عن تلبية هذه الزيارة، وإن لم يعتذر عن المشاركة في هذا المؤتمر

¹ - المشير، 1914/01/08

² - ناصر (محمد)، المرجع السابق، ص 67

بكلمة وجه نسخة منها إلى مجلة " المباحث " التي نشرت منها «ما سمح به نطاق المجلة الضيق، شاكرين للسيد عمر راسم عنايته لمجلتنا وبالفن»¹.

وبسبب هذا النشاط الصحفي على المستوى القطري، فقد أنشأ منذ 1908م صحيفة باسمه وهي "الجزائر"، وقد وصفها مجلة العالم الإسلامي بأنها جريدة بالعربية علمية أدبية وتربوية، وقالت إن: «جماعة» قامت بإنشائها لتتقيد وتهذيب الجزائريين وإنها جريدة دينية بالدرجة الأولى، ومن جهة أخرى قالت إن (الجزائر) تختار من الأخبار كل ما يهم المسلمين الجزائريين أو الذين يزورون الجزائر منهم، وكان الحديث عنها نوعاً من الإعلان، لأن الجريدة طلبت من كل ذوي النوايا الحسنة بالمجلات والإعلان عنها والتبادل معها والتعريف بها²، ورغم ذلك فإن صحيفة (الجزائر) لم تعش إلا ثلاثة أعداد حسب عابد الجلالي³، وكانت تصدر أول ومنتصف كل شهر، والمراسلات معها باسم عمر راسم ومقرها شارع موقادور رقم(02) بالعاصمة، وثنى الاشتراك فيها بفرنسا والمغرب العربي(07 فرنكات)⁴

كما يذهب عابد الجلالي إلى أن عمر راسم قد تعاون مع عمر بن قنور على إصدار (الفاروق) سنة 1913م ثم قرر أن يصدر جريدة خاصة به سماها (ذو الفقار) أوائل عام 1913م ولو تضافرت جهودهما لكان أفضل للبلاد، ولم يصدر من ذو الفقار سوى أربعة أعداد، وقد أجاب أصدقائه الذين نصحوه بالتخفيف من حدة لهجته بأنه اتقى الشر بجعل الجريدة تحت اسم عالمين أحدهما فرنسي وهو "هنري الروشفور" والثاني مسلم وهو الشيخ محمد عبده،

¹ - المباحث، 1945/04/13م

² - مجلة العالم الإسلامي، مج2، أكتوبر 1908م، ص341

³ - عابد الجلالي، المصدر السابق، ص54

⁴ - سعد الله (أبو القاسم)، المرجع السابق، ج5، ص285

وكان عمر راسم حسن الخط ونساحاً فاستدعته جريدة (المبشر) للعمل فيها وللاستفادة من خطه، وربما كان للسلطات خطة في القضاء عليه أو تدجينه، كما دجّنت عمر بن قدور بعد ذلك، وبدأ راسم العمل في المبشر، ثم لم يعتن أن اتهم بالتورط في التعامل مع العدو، وقبض عليه وُج به في السجن يوم 13 أوت 1915م في نفس الفترة التي أعتقل فيها زميله ابن قدور، ولم يُفرج عنه إلا سنة 1921م، بعد مراجعة القضية وتدخل بعض الفرنسيين والجزائريين لصالحه¹ وقد لقي في سجنه هذا عذاباً شديداً، وصف ذلك في رسالة له، أرسلها لأخيه سنة 1919م قائلاً: « إني الآن أعيش الفترة الأكثر صعوبة في حياتي، إنّ اللحظة التي أستطيع فيها التنفّس لم تحن بعد، فهل أستطيع تحمّل هذه الوضعية التي لا تُطاق؟ هل أستطيع العيش في هذه المحنة القاسية؟ لمن أتوجّه؟ لمن أشكو؟ حتّى البكاء الذي سيخفّف عني لا أستطيعه لأن ذلك يجب أن يكون بعد إذن»²، وعلى الرغم من ذلك العذاب، فقد عكف في محنته تلك على تفسير القرآن الكريم³، ليكون له عوناً معنوياً يستطيع بواسطته الصمود وتحمل ما يلاقيه من تعذيب وتكيل.

ويعود سبب سجنه إلى سوء حظه وهو أن بريده إلى جريدة (الشعب) المصرية قد سقط في أيدي المخابرات الانجليزية، وكان البريد عبارة عن رسالة بتوقعات عديدة من الجزائريين لنشرها، وهي رسالة تدعو المسلمين إلى الاقتداء بالسلطان العثماني خليفة المسلمين والتوقف عن مساعدة أعداء المسلمين، وبعد

¹ - عابد الجلاي، المصدر السابق، ص، ص (55، 56)

² - محمد ناصر، عمر راسم المصلح الثائر، ص-ص (26-27).

³ - نويهض (عادل)، المرجع السابق، ص 243

تبادل الوثائق بين الحليفتين (بريطانيا وفرنسا)، وجهت هذه الأخيرة (فرنسا) التهمة لعمر راسم على أنه محرر تلك الرسالة، وقد حدث ذلك في الوقت الذي كانت فيه (وصايا) علماء الجزائر ورجال الدين والطرق الصوفية تنعي على تركيا دخول الحرب وتتاصر فرنسا ضدها وتدعو مسلمي الجزائر إلى الوقوف في صف «أم الوطن» الحنينة على الجزائريين وفاعلة الخير فيهم¹، إن هذه الصورة من صور النضال الصحفي لعمر راسم تُسجل بداية مشرقة وناصعة لتاريخ الصحافة العربية بالجزائر ونموذجاً يمكن للأجيال احتذاؤه والافتخار به.

ب/ عمر راسم وقضية الجزائر :

إن الإنتاج الصحفي لعمر راسم فيما يتعلق بالنضال الوطني والقومي ينتظم على ثلاثة أصعدة أو صعيداً واحداً يتدرج متسعاً في شكل هرمي معكوس (الجزائر، العالم العربي، العالم الإسلامي)، هذه الأصعدة إن تكن كما أشرنا صعيداً واحداً تتداعى أطرافه تداعي الجسد بالسهر والحمى فإن صاحب "ذو الفقار" لم يفته أن يعالج المشاكل التي تطرح نفسها بصورة إقليمية إلى جانب اتساع نظره إلى الأفق الواسع العريض، وأن ينذر الأقربين إنذاره الأبعدين فلا هو مطوّح النظرة بالعنف الذي ينسيه موقع قدمه، ولا مطأطئ الرأس على شبر من الأرض ينهله عمّا حوله، ولكنه عاش المواقع جميعها وأمدّها من فكره وجهده وعالج مشاكلها معالجة الناقد البصير فلم يغفل مشكلة طرحها عصره وما أكثر ما طرح من مشاكل، إلا وكان له فيها الرأي النافذ والقول الفصل.

1- سعد الله (أبو القاسم)، المرجع السابق، ج5، ص287

عاش للجزائر بمحنة الاستعمار فيها وتسلط الانحراف الديني عليها، وعاش للعالم العربي ودعوته للتحرر والاستقلال، وبارك الوفود التي سافرت إلى باريس للتفاوض مع الأتراك، وحاول كشف خيوط المؤامرة التي تحاك غيلة بين الصهيونية والاستعمار الأوروبي بل كانت له صلات ودية ونضالية مع حركة النهضة الصحفية العربية وزعمائها.

• موقفه من التجنيد الإجباري :

كان الشعب الجزائري يعاني إبادة جماعية أخرى، تتجلى في التجنيد الإجباري الذي كان يسوق أبناء الجزائر إلى الحرب العالمية الأولى، أو يضطرهم إلى هجرات جماعية خارج البلاد، فرارا من الخدمة العسكرية لدولة محتلة غاصبة، وستكون هذه الهجرات خيرا وبركة على الجزائر عندما تتمخض عن طلائع الإصلاح الديني فيها، وفي هذا المنعرج الخطير يبرز عمر راسم بقلمه في الصحافة التونسية ثم في صحيفتيه (الجزائر - ذو الفقار)، والشيء المشترك بين هذه الكتابات هو حدة ألمه من الحالة التي يتردى الإسلام والمسلمون فيها، فاكسبت مقالاته صبغة المعالجة الحية لمشاكل الساعة وانفتحت مضامينها على إدانة صريحة للسلطات الاستعمارية، حيث توجه إليها بجملة من المقترحات التي من شأنها التخفيف من حدة هذه الأزمة، وإيجاد الحلول الممكنة التي تربط بين الغايات التي يروم الاستعمار تحقيقها من وراء قانون التجنيد الإجباري وبين ما يجب أن يتحقق من مطالب للشعب الجزائري حتى يتمكن من استعادة جزء من حقوقه الضائعة كي يتسنى له الامتثال لهذه القوانين.

لقد عالج عمر راسم هذه المسألة باستفاضة ودقة وبغيرة وطنية عالية ونضجاً واضحاً عند طرح الموضوع على أسماع السلطات من خلال الصحافة

التونسية تارة وصحافته هو تارة أخرى، فلم ينجح إلى التطرف أو المعارضة المباشرة لهذا القانون، مفضلاً على ذلك أسلوب المناهضة المُبطنة، والمساومة الرصينة، واستغلال الفرصة لإظهار الحالة التي عليها وضع الجزائري المدعو للوقوف جنباً إلى جنب مع الفرنسي في ميدان القتال واقترح لهذا الغبن مساواته به في فرص الحياة مقابل دعوة السلطات له إلى مشاركته إياه فرص الموت.

وكانت البداية؛ رسالة مفتوحة نشرت بعنوان (رأي حر)، توجه فيها كاتبها إلى رئيس الوزراء الفرنسي ووزير الحربية والوالي العام، يُذكّرهم على صفحات جريدة (التقدم) التونسية بما يتوجب عليهم عمله إذا هم راموا تعاوناً نزيهاً مع الجزائريين وأرادوا الضمانة الوحيدة لاستجابتهم إلى قانون التجنيد الإجباري الذي هو في حقيقة أمره حلّ لمشاكل فرنسا على حساب الجزائري المضطهد على أرضه، وبقدر ما اتسمت به هذه الرسالة من الوضوح والدقة في الصياغة فإن أهميتها كوثيقة تاريخية تشير إلى ما تحلى به كُتّاب هذه المرحلة من الشجاعة، وإلى ما تميّز به النشاط الفكري والأدبي الجزائري منذ بدايته من الروح الثورية المبدعة، ففي هدوء وأناة نرى الكاتب يخاطب الدولة الفرنسية من رئيس وزرائها إلى واليها العام على الجزائر، يُبصّرهم بما حاولت فرنسا تجاهله في نفسية شعبه مذكراً إياهم بتاريخ هذا الشعب ووجدانه الديني دون أن يغفل عرض الواقع المؤلم الذي يعيشه هذا الشعب محروماً من كل الحقوق التي تؤهله لأن يكون جندياً مقاتلاً بموجب قانون التجنيد الإجباري.

ومما يلاحظ في هذا العدد أن الكاتب أحكم استغلال هذه الفرصة ليُجاهر بآرائه الإصلاحية ويطرحها علّها تبلغ أسماع المستعمرين، ففي مستهل هذه الرسالة نراه يقدم نفسه إلى رئيس وزراء فرنسا ووزير حريبتها وواليها العام على الجزائر

باعتباره مواطناً بسيطاً غيوراً على وطنه وعلى مجتمعه، أي أن ما يجري على لسانه إنما هو صوت الجماهير الشعبية المغمورة التي لم تحجبها المناصب الإدارية والسياسية، ولم تحل بينها وبين ما تراه الحق، وتعتقد أنه الواجب المحتوم، والواجب هو الإصداع به في مثل هذه الظروف والمواقف.

يُقدم عمر راسم نفسه إلى أركان الدولة الفرنسية بقوله¹: «إني لم أكن عضواً بالمجلس البلدي ولا في غيره من المجالس ولكني عضو في الجامعة الجزائرية التي يجب أن أكون عاملاً فيها بقدر الطاقة وأحسن إليها بما يسر لي من الفكر كما أحسنت بألبانها وبقولها ونسعى لها في كل طريق ننهض به إلى درجات السعادة والمدنية»، وبعد أن يشرح مفهوم الإسلام وإحسانه، مستنداً على ذلك بآيات قرآنية مشيراً إلى دعوته: «لتأليف القلوب وقيادته الفكر إلى الفضائل الدينية»² نراه يستعرض نبذاً من تاريخ القطرين التونسي والجزائري تتضمن الإشارة إلى المساهمات الحضارية والإبداع الإنساني الذي قدمه أبناء هذين القطرين في مجال التطور البشري، كما تتضمن أسفه على ذلك الماضي الذي تعرض للانتكاسة كما تتعرض لذلك كل الحضارات والدول «فقد مضت قرون وملوك أفريقية في تنقل، والأخلاق كريمة، والخصال حميدة حتى ظهر تأدب بالقيروان، ورقة بتونس، وبزغت أنوار بجاية، وأشرق مدينة تلمسان وأشرق علم الجزائر، فما لبث ذلك الفوز الكبير حتى تبدلت الأفكار، وقام الليل مقام النهار فغربت الشمس، وظلام الجهل أرخ علينا سيول البدع والتأخر بأنواع همومه لنبتلي ونكون آخر أمة أخرجت للناس، دينها الوثنية، وعبادتها الأموات وحرفتها العجز، وطعامها الفقر

¹ - التقديم، 1907/12/26 «رأي حر».

² - نفسه

وحياتها الذلة والمسكنة ولم تنزل هذه المصائب تزداد مع الشهور والأيام، فلا يمكن لهذه الأمة أن تجبر على حمل السلاح الذي لها شغف كبير إليه خليفة، إلا بعد نشر مصابيح العلم النافع بين أفرادها لتضيء على أفكارهم...»¹.

ويربط الكاتب معارضته المبطنة لمشروع (التجنيد الإجباري) بما يتوجب على فرنسا القيام به من جهتها في دور تثقيفي لترشيد الشعب وتأهيله لوعي مغزى هذا التجنيد فما دام الشعب في نظرها جاهلاً أمياً فمن مصلحته أولاً كما من مصلحة فرنسا أن يتعلم ويرفع عنه غشاوة الجهل، ويتخلص من التعصب والأوهام وبذلك يتسنى له الوقوف جنباً إلى جنب مع الفرنسي المتعلم، ومنافسته في الطموح إلى الرتب العسكرية، باعتبار ما للعربي عامة من الشهامة والشجاعة وحب السلاح والطموح إلى نيل أعلى المراتب في الميدان العسكري، ولا يخفي الكاتب في رسالته شعور الامتعاض الذي يساوره ويساور الشبان من أبناء الجزائر ورجال مستقبلها وهم يرون ما عليه أولاد جلدتهم من الجهل الذي يفقدهم كل إحساس بالشخصية، ويسير بهم إلى الاضمحلال، فيقول مخاطباً أركان الدولة الفرنسية بهذا الصدد: «نحن شبان الجزائر ورجال المستقبل تسوعنا جهالة أبناء وطننا، وحالة أبناء جنسنا الواهنة التي لا شك أنها تسير بهم إلى الاضمحلال إذ هم إلى الهمجية أقرب وحيث أن لهم قابلية طبيعية في الجندية وشوقاً في حب التفاخر بالسلاح، فلا يتساوون لجهلهم مع أبناء فرنسا الذين تغنوا بلبان المعارف، ولربما يقع بينهما تنافر وشقاق لا تحمد عقباه، لأنه من البديهي أن أبناء فرنسا يتقدمون على العرب في

¹ - نفسه.

المراتب العسكرية فلا تسمح شهامة العربي أن تكون نفسه متساوية في الموت مضطهدة الحقوق في الحياة...»¹.

بالإضافة إلى توضيح الأسباب السياسية والنفسية التي تعيق العربي الجزائري عن الاستجابة لمشروع التجنيد الإجباري، يبسط عمر راسم جملة من العوائق الأخرى الاقتصادية والاجتماعية التي تجعل التاجر العربي، والفلاح العربي أقل مستوى من نظيره التاجر الفرنسي واليهودي اللذين يباشران الاقتصاد، ويمارسانه وفق منطق علمي، بعد أن أتيحت لهما فرص إتقان هذه الخبرات في المعاهد الصناعية التي حرم منها التاجر والفلاح الجزائري المتخلف، فالتاجر الجزائري يفتقر إلى الكفاءة التي تؤهله لممارسة التجارة الناجحة مثل نظيره الفرنسي أو اليهودي، كما يجهل الفلاح «علوم الفلاحة وطبائع الأرض والجو وجلب المياه، وبذلك فإنه أنفع له وللحكومة من حمل السلاح وطلب العلم وتيسير المعاش»².

ومن الناحية الاجتماعية يرى الكاتب أن ثمة اختلافاً بيناً بين طبع العربي وطبع الفرنسي في كل شؤون الحياة، وإذا ما شاعت فرنسا حقاً أن تُغير عقول الأهالي فإن عليها حسب رأيه أن : «تتشئ المدارس في كل قرية ودشرة، فتجعل التعليم الابتدائي إلزامياً ومجانياً، وتؤسس المدارس الصناعية وتُنظم التجارة، وفرض فنون المحاسبة ومسك الدفاتر في بعض مراحل التعليم، واشتراك الأهالي في الوظائف حسب مؤهلاتهم العلمية»³، وعلاج هذه المطالب جميعاً في نظره يتمثل في منح الشعب الجزائري «حرية الفكر وإباحة ممارسة صناعة الصحافة

¹ - نفسه

² - نفسه.

³ - نفسه.

للمسلم لما في ذلك من تنقيف العقل، وسلامة القلب وحياء الشعور»¹، ثم يختتم عمر راسم رسالته المفتوحة بهذه النتيجة المتوقعة إذا ما وقعت الاستجابة لطلباته، وهي «اشتراك العربي مع أخيه الفرنسي في الفرح والحزن وباختياره يفدي نفسه أخيه بنفسه لصدقه، وصفاء سريرته، واستتارة فكره أو مدافعة عن حقوقه التي حفظها لفرنسا بكل احترام...»².

ويقلب مفعم بالأمل، وبكل مشاعره الوطنية يتوجه الكاتب في نهاية الأمر إلى مخاطبيه من رجال الدولة الفرنسية رجاء أن يدركوا مقاصده النبيلة التي لا غاية لها سوى خدمة المصالح المشتركة التي تهم الشعبين، وتهم أبناء وطنه بصفة خاصة أولئك الذين عدموا الوسائل التعبيرية التي تتيح لهم فرص المجاهرة بآرائهم وإبلاغ صوتهم إلى أسماع المسؤولين على رأس الدولة الفرنسية الذين ربما عذروا لجهلهم بطبيعة الشعب الجزائري وطموحه، وأوضاعه المتردية التي لا يمكن أن تمكنه من وعي دوره في إطار ما تراه فرنسا، ما لم يقع انتشاره من وهدة الجهل والتخلف ويُسوى بالأوروبي المستعمر في الحقوق والواجبات مع مراعاة الخصائص الحضارية التي ينتمي إليها المواطن، قائلاً بهذا الصدد: «وإني أرجو أن يكون مقالتي هذا وسيلة للمقاصد الشريفة التي هي من أغراض فرنسا الفخيمة، وحياء جديدة نافعة لأبناء وطني الأعزاء، والله يهدينا إلى كل طريق توصلنا إلى ما فيه الخير للإنسانية والأخوة والسلام»³ ولا يجد الكاتب ما يُمهر به رسالته

¹ - نفسه.

² - نفسه.

³ - نفسه.

أعظم من هذه الصرخة المدوية التي تلخص ما كانت تجيش به أعماق جماهير الشعب الجزائري عامة وهي قوله: «ولتتش الجزائر وأصدقائها ومحبوها»¹.

ويصف عمر بن قنبر انعكاس مضمون هذه الرسالة على نفوس الجزائريين المتطلعين إلى منقذ يتصدى للدفاع عن قضيتهم بصدق وإخلاص فيقول²: «ابتهج جلّ الجزائريين إن لم نقل كلهم من تلك الرسالة المفتوحة المنشورة في جريدة التقدم، ونظروا إليها نظرة ممزوجة بعوامل المسرة من وجود مثل الكاتب الأديب والسياسي اللبيب ابن منصور الصنهاجي، فإن الشعب الجزائري قضى عليه التفهقر شر قضاء فأوقعه في هوة النقاء، ولاغرو فإن لتلك الرسالة الجديدة أساساً متيناً من الإنصاف، وحلت مع وجازتها محل الكتب الفخمة المملوءة بالبروغرامات [البرامج] والقوانين التي تضطر إليها كل أمة هامت بحب النهوض والترقي فضلاً عن شعب كالشعب الجزائري، ولذلك أخذت الآمال هنا تنتظر بفارغ الصبر الوقت الذي تُعير فيه الجمهورية الفرنسية التفاتها إلى تلك الخطة السليمة، وراجح أنها لا تفتأ أن تسرع إلى بث محبتها بين ضلوع كل مسلم باستعمال الطريقة التي حظها حضرة الكاتب السيد ابن منصور الصنهاجي التي يجن إليها الغني، بل وحتى الفقير المحتاج، فلا عجب إذن أن لهجت السنة الجزائريين بالشكى والنقاء - الصنهاجي - الذي خط في خدمة الوطن حروفاً لا ينساها له التاريخ، وإن تعاقبت الدهور، وتوالت العصور».

ولئن أبدت السلطات الاستعمارية إحجاماً واضحاً في قبول بعض المطالب الواردة في رسالة ابن منصور الصنهاجي، وحاولت التغاضي عن ردود الفعل

¹ - نفسه.

² - "الأزمة الجزائرية"، التقدم، 1908/01/23م.

الشعبية المختلفة المؤيدة لما جاء فيها من حقائق وتحليل واقعي، فإن حزب الاستعمار كان أشد غليانا وثورة ومعارضة لكل مبادرة كان يلمس فيها تهديدا مباشرا لمصالحه وأوضاعه وتفتن إلى أن معارضة النخبة ذات الميول العربية الإسلامية لهذا القانون كانت تنطلق في أساسها من منطق المطالبة بمساواة المواطن الجزائري بالمواطن الفرنسي، بما في ذلك مساواته به في فرص الانتخاب والحقوق الواجبة له وعليه وهو منطق يقوم على وجهة وإقناع، وقد يسبب للسلطات بعض الإحراج ويحملها على مراجعة الموقف برمته.

•موقفه من الظروف السياسية والاجتماعية للبلاد:

إن السمات الأساسية لفكر عمر راسم تُستشف من خلال كتاباته التي عبّر من خلالها بصدق وعمق عن الوطنية الجزائرية وعن القضايا المغاربية والعربية؛ لقد شعر وهو المفكر الجزائري بأن وطنه أصبح مهددا بفعل آلة التدمير الاستعمارية وأن الواجب يُملّي عليه أن يُنبه شعبه إلى خطورة هذا الاحتلال ومراميهِ البعيدة وبما أنه في بداية أمره كان يفتقر إلى الوسيلة التي يُخاطب بها شعبه بطريقة مباشرة فقد وجد في الصحافة التونسية منبرا ملائما لنشر هذه الأفكار بعيداً عن الرقابة الاستعمارية وضمانا لتبليغ هذه الآراء عبر هذه الصحافة التي كانت توزع في الجزائر.

فتصدى عمر لنصيحة أولئك الذين خدعهم الاستعمار بزيفه فسوّلت لهم نفوسهم الضعيفة أن يبيعوا وطنهم في مقابل نياشين وشحوا بها صدورهم، وذلك لتبرئة ذمته وذمة وطنه منهم ولمحاولة تبصيرهم بما وقعوا فيه من خديعة إغراء

قائلاً لهؤلاء مترفقا في القول علّهم ينتصحو¹: «إخواني، أما بعد فهذه كلمة أفتتح بها قلبي في جريدة التقدم وهي كما عهدني أبناء وطني الأعزاء موجهة إليهم باحثّة في شؤونهم فليوسعوا صدورهم لنصيحة أخيهم وليكونوا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه...إننا معشر الجزائريين قد قام بيننا أناس تخلقوا بمفاسد التمدن الحديث وشرور الحضارة الجديدة ووجهوا إرادتهم إلى الأخذ بأزمتنا، ولولوا وجوههم شطر المتسلط علينا، وتزويق صدورهم بنياشين الفخخة والبذخ، كل ذلك من نتائج التقاليد المضرة بالدين وبالوطن، والافتداء بسياسة الغدر والتغلب التي يأبأها الشرف والهمة فلا غرابة إذا قلنا إن هؤلاء هم تماثيل عيوب قاتلة وسهام على الآداب الإسلامية قاضية».

ولقد ذكر له محمد عابد الجلاي² بعض المقالات منها: «اليقظة الجزائرية» التي نشرها في جريدة "مرشد الأمة" ورد فيها على من كتب في جريدة - المشير - حول الحركة الفكرية في الجزائر قال هذا الكاتب إن أحوال الجزائر تتحسن!! ولكن راسم في رده ذهب إلى غير ذلك، وقال إنها تسوء بل في «أسوأ حال» رغم أن الجزائريين يفرحون بما حدث في العالم الإسلامي من تغيير، وقال إن: «قرننا هذا هو قرن الظلمات»، واعتبر ما حدث من جديد في الجزائر إنما هو الفساد الأخلاقي والاجتماعي حتى أرغمنا على «بيع ما نملك بالثمن البخس إلى المغتصبين»، وانتقد في مقالاته الخطباء (السياسيين؟) والجرائد التي تكذب بالحديث عن سعادة الجزائريين، وإنما هي تدس السم بالعسل. وفي نظره أن

¹ - " نصيحة الأخ "، التقدم، 1908/11/30م

² - المصدر السابق، ص53. وهذا الرد نشره في جريدة المشير. 21 ربيع الأول 1329هـ.

الجزائري تحت الاستعمار الفرنسي، هو «آخر الأدميين درجة» فقراً وجهاً وكانت نظرة راسم إلى المستقبل أيضاً نظرة سوداء.

وجاءت افتتاحية العدد الثالث من جريدة (ذو الفقار) التي عنوانها بـ: «بالإسلام والمسلمين» عبارات مفعمة بالثورة على الوضع العام الذي عليه المسلمون الجزائريون وغيرهم، وفي لهجة خطابية ساخنة تساءل كيف يكون المسلم مسلماً في بلاد مساجدها خالية من المصلين، بينما شوارعها مملوءة باللصوص والسفلة، بلاد انتشر فيها الربا والسلب والجفاء بين أهلها، وانعدم فيها الإحسان، وكثر فيها تقليد الكافرين (الفرنسيين)، ودعا راسم إلى نبذ الكسل والخمول والتوكل على الغير، وإلى التخلق بالفضيلة، وقال: «إننا إذا لم نعرف الأسباب التي أدت بالأمّة العربية إلى القوة والسودد، إندثرنا»، وفي نظره أن تلك الأسباب لا تخرج عن مكارم الأخلاق وأحاسن الصفات، ثم طلب من الله «أن يجري في عروقنا دم السلف»¹.

أما مقالاته الوطنية الكثيرة في هذا الصدد فقد نشر معظمها بجريدة «الحق الوهراني»، والحق أن هذه الجريدة ذات النزعة الإسلامية الصادقة، قد وقفت أمام قانون التجنيد الإجباري برجولة وثبات ويكفي دليلاً على صدق لهجتها أن يكون راسم من أبرز المرابطين في أعمدتها مرابطة الجرأة والتحدي ولعل من عوامل نشأة هذه الجريدة نفسها تلك الظروف العصيبة التي تلت صدور القانون الأنف الذكر إذ ليس بين صدورهما وصدور القانون سوى شهور قليلة.

¹ - جريدة ذو الفقار، 14/06/1914م.

وهذا نموذج مما كتبه في هذا الشأن يُنبئ عما كان يتمتع به من حماسة قوية لا تعرف الخوف وصدعٌ وصدقٌ الحق لا يهن ولا يضعف، ولو كان المعني بالأمر مستعمر صليبي حاقداً، ثم هو يُجسد من ناحية أخرى ذلك الصراع المرير الذي كان يقسم الطليعة المتنفذة قبيل الحرب إلى فريقين فريق متفرنس لا تعز عليه مقوماته الشخصية في سبيل الحقوق السياسية وفريق مسلم محافظ لا يقيم وزناً للحقوق السياسية إن كانت على حساب أصالته اللغوية والدينية.

فهو يهاجم صراحة أولئك الذين «تخلقوا بمفاسد التمدن الحديث فراخوا ينتصرون للخدمة العسكرية الإجبارية، ظناً منهم أن سبب انحطاطنا هو الدين، وأن الخدمة العسكرية تجبرنا على مخالطة إخواننا الفرنسيين وأبناء الأجانب فنتخلق بأخلاقهم وتذهب من عقولنا تلك الأوهام الدينية، والخرافات الإسلامية، خلاف ما يظهر من أن الذي دعاهم إلى قبولها (أي الخدمة العسكرية) والرضا بها، هو الطمع في بعض امتيازات ينالها المسلمون بعد خدمتهم العسكرية».¹ وهنا يُعرض راسم بالاستعمار الفرنسي من جهة، وبالمتفرنسين الأهالي من جهة أخرى حين يذهب إلى أنه لو تمسك المسلمون بدينهم تمسكاً حقيقاً، وفهموه فهماً نقياً من الخرافات والأوهام، لما «بقي شبر في البسيطة يحكمه غير المسلمين» وهذا في تقدير راسم قصر في النظر، وخطل في الرأي.

• مواقفه ذات البعد الإنساني:

وعمر راسم في نزعتة الإصلاحية الثورية تلك، لم تكن لتقف به عند حدود وطنه المغتصب أو يكتفي بالتشكي لمأساة شعبه المضطهد، وإنما تجاوزها بإدراك

¹ - الحق الوهراني، ع4، 1912/07/13م.

ووعي إلى الإنسانية المعذبة كلها، رابطاً صلاته بالصحفيين والكتاب ذوي النزعة الاشتراكية في أطراف العالم، فكان له أصدقاء في روسيا، وفي فرنسا، يرسلهم ويتبادل الرأي معهم، ومن ثم كان يتطلع إلى ثورة عالمية شاملة، ويحلم «بجيش السلام» الذي سيحقق ذلك التطلع، ولكن اهتمامه بالوطن العربي والإسلامي، كان أشد اتصالاً بزعمائه ومفكره، وكتابته عن مجريات الأحداث فيه.

وكان عمر راسم معجباً بالفكر الاشتراكي، وبفكرة المشاركة في الملكية ومحاربة الإفراط الطبقي، لكن هذا لا يكاد يخرج من موقف المعجبين بالعدالة الإسلامية وسماحة الإسلام، وكانت الاشتراكية الكلاسيكية ما تزال تعيش في النظريات ولم يكن الجزائريون في أوائل هذا القرن يذكرون أن مدرسة "أونفتان" هي التي شجعت على الاستعمار والحكم العسكري البغيض وإرساء قواعد التمددين الفرنسي، فقد كتب مُعبِراً عن ذلك في جريدته (ذو الفقار) سنة 1914م، ولعله كان يتابع أفكار "جان جوريس" من الصحافة الفرنسية، وقد جعل مقالته (صيحة اجتماعية)¹، مما يبرهن على أن نظريته للاشتراكية كانت نظرة عدالة اجتماعية لإنصاف المحرومين من الظالمين كما كان حال الجزائريين. وفي نظر عمر راسم أن الاشتراكية قد أصبحت تهز العالم الأوروبي، فهي التي ترتعد منها فرائس أصحاب الثروة الطائلة هناك، ولا ندري لماذا خصَّ أوروبا بالثراء بينما الكولون في الجزائر يشربون عرق مواطنيه وقد استثروا على حسابهم، هل كان راسم فقط يتفادى المواجهة والرقابة حتى يمرر صيحته إلى هؤلاء المواطنين؟ وقد اعتبر راسم الاشتراكية حركة المستقبل للشعوب المتمدنة، وأين التمدن من الجزائر؟ ويقول إن

¹ - ذو الفقار، ع2، 1913/10/26م، نقلاً عن - سعد الله، المرجع السابق، ج6. ص452

الاشتراكية هي لغز التمدن، ومعجزة الأمم حين تصل إلى درجة عالية من الحضارة وهو لغز عجز عن حله الفلاسفة وعلماء الاقتصاد السياسي، واعتبرها كذلك «حركة مباركة»، كما اعتبر ألمانيا هي «مبعث الاشتراك» ومنها انطلقت إلى سائر الأمم (الأوروبية) حيث استفادت منها الطبقات العاملة، كما انتشرت في المدن الصناعية الأهلة بالعمال الذين اتخذوا من الاشتراكية مذهباً لهم في الحياة، وهو يسميها أحياناً «مذهب الاشتراك» الذي أنصف الفقراء والمحتاجين والعمال وحتى «عقلاء الأمم الأحرار»¹، لاسيما أولئك الذين كانوا يعملون على المساواة بين الناس، وربما يفهم البعض أن الاشتراكية كانت معادية للدين، فبادر عمر راسم إلى حديث شريف نسبه للرسول ﷺ، وهو حديث يُذكر بالمساواة أمام الله، وبأن التفاضل عنده إنما هو بالعمل الصالح والنافع للناس وليس بالمال والثروة ونصه: ﴿لَا فَضْلَ لَأَعْجَمِي عَلَى عَرَبِي وَلَا عَرَبِي عَلَى أَعْجَمِي إِلَّا بِالتَّقْوَى﴾.....².

وهكذا فإن هذه النماذج القليلة من المقالات التي نشرها في فترات مختلفة، ومتباعدة أحياناً كانت تلقي الضوء على وجهة هذا الفكر، وترسم الملامح الأولى لآرائه ونزعتة الوطنية، وتصوّره للعوائق التي كانت تعوق الجزائر عن إدراك مطمحها وتحقيق إرادتها، والطرق المفضية إلى استعادة الشخصية الجزائرية، وشحنها بالعزيمة والقوة، وعن هذه الأفكار نشأت دعوة الأدب إلى الوطنية الجزائرية.

ج/ قضايا الوحدة العربية والشمال الإفريقي:

•العالم العربي والقضية الفلسطينية :

¹ - ذو الفقار، ع2، 26/10/1913م، نقلاً عن - سعد الله، المرجع السابق، ج 6 . ص452

² - نفسه.

إن اهتمام عمر راسم بالوطن العربي الإسلامي، جعله أشد اتصالاً بزعمائه ومفكره، وكتابة مجريات الأحداث فيه وخلاصة رأيه في هذا المجال هو أنه لا خلاص للشرق من سيطرة الغرب إلا بإيمان الشرق بشخصيته، واعتداده بنفسه واعتماده على قوته، ويستمد كل ذلك من تاريخه الذهبي، ويبعثه من جديد بمواكبه متطورة أساسها العلم الصحيح الذي لا ينبهر ببريق المدنية الخادع، فإنه ليس أضرّ بالأمم الناهضة من التقليد والجمود. كانت دعوة الإمام محمد عبده وكتاباتة تخرق الأسوار الحديدية إلى البلاد المستعمرة والمقتطعة من الإمبراطورية العثمانية، وكانت مواجهاته مع المستشرقين تجذب أنظار المسلمين إليه من الأقاليم ولعل هذه الدعوات كانت أبعد أثراً في بلاد مستعمرة كالجزائر، يُطوّقها المستعمر بحرمان روعي داخلياً بتسلطه على الدين، وخارجياً بترصده لكل رافد يمكن أن يغذي هذه الروح، وهذا ما يُفسر تعلق الصحافة الجزائرية في فجر عهدها بما يُنشر في صحافة الإصلاح في المشرق العربي وإعادة نشره على أعمدتها، والشيخ عمر راسم يذهب أبعد من ذلك في تجسيم مدى تعلق الجزائر بالإمام محمد عبده وحركته الإصلاحية، حين يسمي الإمام بعد عشر سنين من وفاته المشرف الديني على الجريدة ثم يُضيف موضعاً اتجاه الجريدة:¹ «ذو الفقار جريدة عبدوية إصلاحية، وإنها لا تخرج عن الطريقة التي خطّها لها رجال الإصلاح المخلصون، ومما اتخذته مبدأ لها بُعدها عن السياسة لأنها مهما دخلت في شيء أفسدته».

وقد خلقت حركة الإمام في الجزائر جواً من الجدل والنقاش اعتبره الشيخ البشير الإبراهيمي التبشير الأولى التي مهّدت الطريق لجمعية العلماء فقال:

¹ - ذو الفقار، 1913/10/05م.

«...نوازع جزئية محدودة أحدثتها في النفوس المستعدة، الأحاديث المتناقلة في الأوساط العلمية عن الإمام عبده، ولو من خصومه المُمعنين في التشنيع عليه.. فكانت تلك الأحاديث تفعل فعلها في النفوس المتبرمة من الحاضر، والمستشفة إلى تبديله بما هو خير وتكييفها تكييفاً جديداً..»¹، وطبعاً لم يكن عمر راسم بمعزل عن هذه النوازع المحدثه، وهذا التوثب العربي لنيل حقوقه، بل عاشه بكل أحاسيسه، ولم يمنعه تعلقه بالخلافة الإسلامية واعتزازه بدولة القرآن، أن يُندد بالاستبداد العثماني ونزعتة العرقية، ولا منعه بعده عن هذا الاستبداد، وهو وشعبه واقعين تحت استبداد يماثله من أن يعي الأحداث وعي الخبير ويُحيل فيها قلمًا عرف كيف يراوغ المطارد الرقيب، فاختلس منه سنتين في عمر الصحافة الجزائرية الحرة، وأرضى ضميره بنفثة مصدور في قضايا تهدد كيان الأمة العربية الإسلامية، وإن المستعرض لعناوين كتاباته المتناثرة في الصحف الجزائرية (كالحق الوهراني) والتونسية ليجد نفسه أمام شاعرية لاقطة للأحداث التي هزت العالم الإسلامي والعربي ويلمس في الوقت ذاته مدى عمق التجاوب بين الشاعر وقوميته وعقيدته ومدى عمق الجرح الذي ينخر جوانحه.

غير أن الأمر الذي بات شغل راسم الشاغل، والمحور الذي دارت حوله أغلب كتاباته هو ما يتهدد الوطن العربي والإسلامي من خطر الصهيونية، فإن اهتمامه بالتحذير من هذا الخطر، اهتمام ملفت للنظر حقاً، فإننا لا نعرف كاتباً جزائرياً واحداً في ذلك الوقت، انشغل بهذا الموضوع انشغال راسم به، ولعله ليس ثمة وصف ينطبق عليه أدق من ذلك الذي اختاره لنفسه حين نعتها بأنه: «عدو

¹ - الإبراهيمي (محمد البشير)، سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الجزائر: دار الكتب، 1982م

اليهود على الإطلاق»¹، فليس عجباً إذاً أن يكون السبب الرئيس الذي دفع به إلى خوض معترك الصحافة - على حداثة سنه وقلة زاده الثقافي - هو مناصرته لموقف "ماكس ريجيس" المناهض لليهود في الجزائر، فقد سارع عمر راسم مبكراً إلى الانضمام للصفوف المناهضة للصهيونية، وشارك في جمعيات من هذا النوع، وربط صلات متعددة مع الكتاب الذين يُعرف عنهم هذا الاتجاه، بل كان ينظم الأشعار الشعبية في هذا الشأن ويُحفظها لأفراد أسرته وأصدقائه، ويشترى صور الأعضاء البرلمانيين الذين عرف عنهم هذا الميل، وليس موقفه هذا نابغاً من عواطف آنية مقبلة لا مبرر لها بقدر ما هو نابع عن احتكاك ومعايشة وصدّر فيه عن روح شعبية جماعية، إذ عرف الجزائريون من اليهود ضروباً من المكر وأفانين من الأذية.

وليس هذا من قبيل الادعاء القول بأن الجزائر لمست أبعاد المأساة الصهيونية في المشرق العربي من خيوطها الأولى، وقبل أن تلتئم وعدا على شفتي(بلفور)، وأن الموقف الواضح الصلب الذي تقفه الجزائر اليوم من القضية ليس ابن الهزيمة بالأمس ولا ابن النكبة بأمس الأمس ولكنه موقف ينزع إلى جذور فكرية عميقة وأصالة قومية رائدة، ولا من قبيل الادعاء القول بأن القلم العربي في الجزائر كان ينضح عروبة ويفنى تجاوباً مع الأحداث في الشرق العربي وأصالة في معالجتها ومناقشتها، بل سبقاً في التنبؤ بها والإشارة إليها. ففي سنة 1914م وفي فترة قائمة من الخنق الاستعماري للأفكار، متوثبة بطلائع من الصحافة الوطنية والفكر الرائد، نلمس انطلاقاً مبكرة للفكر الجزائري، ذات أصالة ووضوح

¹ - مرشد الأمة، ع4، 1907/07/23م.

في مواجهة الصهيونية وتقييم أخطارها، وطرح الحل الوحيد للقضية ذلك الحل الذي لا يزال وبعد ما يقرب من المائة عام رائد الجزائر في قضية فلسطين.

وتطالعنا هذه الانطلاقة في جريدة (ذي الفقار) لابن منصور الصنهاجي أول مبشر بصحافة وطنية جزائرية عربية اللسان، يوم أصدر جريدته (الجزائر) سنة 1908م¹، وفي السنة ذاتها (1914م) طرحت مجلة المنار في القاهرة، المسألة الصهيونية² بمقال لرشيد رضا بعنوان "المسألتان الشرقية والصهيونية"، وبخصوص الثانية قالت: «علم الصهيوينيون أن الدول الكبرى لا يسمحن لواحدة منهن بامتلاك مهبط الوحي ومصدر الدين الموسوي والعيسوي، وأنه إذا زال ملك الترك من بلاد فلسطين فلا بد أن تكون مستقلة تحت حماية جميع الدول... وإنما جئنا بهذه المقدمة كلها لأجل تذكير الذين أكثروا القول في المسألة الصهيونية من كتّاب العرب بأنهم ما فتئوا يدورون حولها ولمّا يدخلوا فيها ويجب على زعماء العرب أهل البلاد أحد الأمرين:

● إما عقد اتفاق مع الزعماء الصهيونيين على الجمع بين مصلحة الفريقين في البلاد إن أمكن.

● وإما جمع قواهم كلها لمقاومة الصهيونية بكل طرق المقاومة وأولها تأليف الجمعيات والشركات وآخرها تأليف العصابات المسلحة التي تقاومهم، وإنما هو الكي، والكي آخر العلاج».

ويوم طرحت مجلة المنار القضية من هذه الزاوية المتأرجحة بين حلّين، لم يمنع جريدة (ذو الفقار) اعتزازها بالإمام محمد عبده، وانتهاجها لمنهجه في

¹ - الخرفي (الصالح)، الجزائر والأصالة الثورية، الجزائر : ش.و.ن.ت، 1977م، ص- ص (33- 34)

² - مجلة المنار، مج17، ج4، مصر : ربيع الآخر 1332هـ، مارس 1914، ص319

الإصلاح والبُعد عن السياسة، واختيارها له مشرفاً دينياً عليها¹، واعتزازها بخلفه (أحمد رشيد رضا) ونقلها المقالات المتعاقبة عن مجلة المنار، هذه الاعتبارات كلها التي التزم بها (عمر راسم) لم تمنعه أن يقف موقف المواجهة المخطئة لمجلة المنار في قضية العرب الأولى فرد عليها بقوله: «...إن اتفاق زعماء العرب الفاتحين وأهل البلاد مع زعماء اليهود، فلا يحق لغير العرب، وهم أبناء إبراهيم الأصفياء الموعودون بتلك البقعة المطهرة، أن يملك تلك الأرض، ولا لغير راية الإسلام أن تخفق عليها، مادام في عرق العرب دم وفي أجسام المسلمين روح...»²، ولعل الأستاذ (أحمد توفيق المدني) لم يجانب الواقع ولم يتجن عليه حين قال: (مشيرا إلى جريدة ذو الفقار): «كانت أول جريدة عربية في الدنيا اكتشفت الخطر الصهيوني ونبّهت عليه...»³، وليس أصدق من عمر راسم، وهو يصوّر إحساسه المُمض تجاه اليهود ويصف معاملتهم السيئة للجزائريين « اليهود أمة قاسية القلب، لا يلدُّ لها عيش ولا تطيب لها حياة إلا بإذابتها لغيرها فعلاً، فإن لم تستطع فلسائناً، ولو أردت سرد ما رأيته بعيني، وسمعت به بأذني مما يؤذون به أمتي، بل والمستعمرين في بلادي لما كفتني الأوراق والمحابر، ولما كفتني الأيام التي عشتها مرتين لتسطير جميع ؛ بل ولا بعض مكرهم ومكائدهم التي يقومون بها طبق طباعهم ومبادئهم... وهذا لا ينكر، ولا يمكن رفضه لأن جميع الأحزاب، حتى الاشتراكي والفوضوي وغيرهما يعترفون بذلك... وما يهود الجزائر بالنسبة ليهود أوروبا وأمريكا إلا ضعفاء، فقراء، جهلاء ومع هذا فإنهم يقومون بما تعجز

¹ - ع 14، ماي 1914.

² - ذو الفقار، ع 16، 1914/06/28.

³ - المدني (أحمد توفيق)، كتاب الجزائر، الجزائر : دار الكتاب، 1963م، ص 345، (ط1: 1931).

عنه أكابر السياسيين، وذلك لارتباطهم مع أبناء جنسهم المقيمين في البلاد المتمدنة المتكئين عليهم عند الحاجة»¹.

ومن هنا ندرك بعض الدوافع التي كانت براسم إلى شن حملاته القلمية ضدهم، على أنه يحذر المسلمين عامة، ويُسارع إلى كشف أعمالهم ومؤامراتهم التي يرتكبونها هنا وهناك، ولا يغفل منها حتى تلك التي قد تبدو في أعيننا اليوم بسيطة أو جزئية، كأن يكتب مثلاً مقالا حارا أثر ما علمه من اعتداء بعض اليهود على الأهالي الجزائريين وتجريدتهم إياه من كل ما يملكه من مال، وتعد هذه الحادثة تطورا خطيرا في سلوكهم، فلئن عرف عنهم السطو بطرق الحيلة والمكر من قبل، فإن ذلك قد جرّأهم اليوم إلى الاعتداء المباشر وفي وضح النهار، وهم بذلك يستكملون أدوات السر بين أيديهم وخيرٌ للأهالي - وقد بدا منهم الاعتداء علناً - أن يحاربوهم به، وذلك بأن يحاصروهم اقتصادياً، ويقاطعوهم مقاطعة صارمة لأن «عمر اليهود في قبضة التجارة»².

ويرى راسم أيضاً أن طبع اليهود واحد مهما تفرقت جنسياتهم وأساليبيهم العدوانية متشابهة وإن تباعدت بهم الأقطار وهدفهم التوسعي لبسط سيادتهم على العالم معروف، ولو تفرقوا شيعا وأحزابا «إن لملك اليهود سفراء وقناصل في كل دولة يعملون فيها عمل أو أكثر أي يعملون إلى ما يقوي شوكتهم ويُعظم سلطانهم، ويُنقذ مظلومهم ويُخلص ضعيفهم، ويُغني فقيرهم ويُؤيد كلمتهم ويُصحح رابطتهم ولهذا فمع كونهم يظهرون التجنّس والوطنية الحادة في الممالك المختلفة التي

¹ - من مقال كتبه عمر راسم في السجن في سنة 1916م. نقلاً عن. محمد ناصر، المرجع السابق، ص 71

² - " الجزء من جنس العمل ". مرشد الأمة، ع14، 1909/12/05.

سكنوها فإنهم يهود قبل كل شيء...»¹، ويبدو راسم من خلال ما كتبه عن اليهود- أنه على دراية تامة بتاريخهم وإطلاع واسع على مخططاتهم سواء في علاقاتهم بالعرب والمسلمين عبر التاريخ الطويل أو تأثيرهم المباشر وغير المباشر في مجريات الأحداث ما بين الدول المعاصرة، وهو في ذلك يكشف عن المعاول التي استخدموها في تقويض الحضارات والممالك، ويسمى الزعماء أو المفكرين الذين استخدموهم في تحقيق أهدافهم بأسمائهم وأعمالهم «رأينا بعد البحث أن كل حركة وقعت ضد الإنسانية من حروب وفتن إلا وأعينهم شاخصة نحوها، وبعد البحث أثبتنا أنهم هم المتسببون فيها، يُوقدون نيران الحرب ويلقون بشرارة الفتن، كما نفثوا سم الفساد بين الأمم لإفساد أخلاقها وتجريدها من الفضائل، ... إنهم يغتتمون هذه الفرص لينالوا سعادتهم، واحة أفكارهم الخبيثة المؤسسة... على هلاك من سواهم ويتخذونها من بين دم ودموع وحزن غيرهم، ويلتقطونها من غبار الفتن، وخبث القتل...»².

ثم أن راسماً لم يقف به الاهتمام بالدولة العثمانية وخطر الصهيونية عليها عند كتابة المقالات وإلفات نظر الرأي الإسلامي العام إليها، بل كانت محور اهتمامه، ومدار مفاوضاته مع بعض الزعماء العرب أثناء سفره إلى مصر والذين لم يجد عندهم فيما يبدو ما كان يأمله من حسن التفهم، وبُعد الرؤية، ففي هذا المجال يذكر بأسى عميق موقف « رفيق باشا العظم » الذي كان يحسب عندئذ من مفكري العرب وزعمائهم، وذلك أن راسماً أوضح للعظم بأن ضعف جمعية الاتحاد والترقي التركية، إنما يعود إلى ما اندس فيها من عناصر يهودية مخربة

¹ - المرجع السابق. (من مقاله في السجن 1916)

² - نفسه.

فأجاب بقوله: «إننا لا يمكننا الاهتمام باليهود لأنهم أمة ضعيفة، ضئيلة، لا نفوذ لها»¹.

وهكذا تتلاحم الصحافة الوطنية منذ أنفاسها الأولى تلاحماً عضوياً مع القضية الفلسطينية وتعالجها ببعد نظر مع بعد في المسافة عن موطن الداء وتحللها بعمق تفكير مع سطحية مفروضة تحجب الرؤيا الصحيحة، لكن هذا النظر لم يكن يحتكم إلى المظاهر والمسافات في رسالته القومية بقدر ما كان يستهدي شعوره الباطني فيمده بالنظرة النافذة، والحكم الصادق الذي قد يغيب حتى عن أولئك الذين عاصروا المأساة عن كذب وتدرجوا مع وقائعها، فكتابات عمر راسم عن القضية لم تكن كلمات وجمل تسرد وقائع الأحداث في فلسطين، ولم يكن الموقف مجرد سرد إخباري لها بل صب في قالب تعليق موضوعي مُعبر عن الشعور القومي الكامن، وقبل الوصول إلى الوقائع وسردها ومواكبتها والتعليق عليها كانت هناك الفكرة المتنبئة بهذه الأحداث المبكرة في تنبؤها وكانت هناك المقالة الرصينة التي أكسبتها فترة الاستبداد أصالةً واستشراقاً.

ونستطيع القول بأن مقالاته الأولى تُعد بمثابة ناقوس الخطر الذي أخذ يقرعه بشدة وعنف، فقد راح يستصرخ الرأي الإسلامي العام بقوله: «داركوا الأمر يا مسلمين ... أفيدونا معشر المسلمين تجازون بقدر العمل...»² ولكن آذان المسلمين صمتت أو تصاممت، فبات تألمه من مؤامرة الصمت هذه أشد حرازة في نفسه من ذي قبل، فالكوت دليل اللامبالاة واللامبالاة دليل الشيوخوخة والوهن³.

¹ - نفسه.

² - أنظر: مرشد الأمة، ع 4، 1909/07/23م.

³ - ذو الفقار، ع 4، 1914/06/28م.

● قضية وحدة الشمال الإفريقي :

إن كاتبنا قد طرح منذ مطلع القرن العشرين فكرة الوحدة المغربية، وتحمس لها ونظر إليها نظرة تاريخية ومستقبلية ومصيرية، وأكد دور الأديب والكاتب في الدعوة إليها، وذلك لتأكيد أن قضية الوطنية الجزائرية ترتبط ارتباطاً مصيرياً بالحل الشامل لقضية المغرب العربي، وهو ما نجد له صدى بارز في أدبه، ولم تكن فكرة المغرب العربي التي تحمّس لها عمر راسم بديلاً في نظره عن قضية وحدة المصير القومي العربي إذ نجده إلى جانب إخلاصه وتعاطفه مع الفكرة الوجدانية المغربية ينظر إلى القومية نظرة ترابط ومصير انطلاقاً من إحساسه بالانتماء العريق والمكين إلى الحضارة العربية، على أنه لا بد من الاعتبار بأن إصرار الجزائري وتأكيد انتمائه العربي كان نتيجة الضغوط الثقافية القاسية التي مارسها الاستعمار عليه قصد القضاء على اللغة العربية والثقافة الإسلامية، وليس عجباً أن نعثر في كتابات عمر بمقاله السابق (رسالة إلى رئيس وزراء فرنسا)¹ على إشارات واضحة ومفصّلة عن انتماءات الجزائر العربية الإسلامية وهو بذلك يُعد بحق رائداً من رواد العروبة في الجزائر.

إن هذه الكتابات المتعددة تغطي النظرة إلى القومية العربية في مستويات مختلفة، ولكنها جميعاً تهدف إلى غاية واحدة وطموح واحد، وهو تأصيل الكيان الجزائري ووصله بارتباطاته القومية العربية وفي هذا الإطار المتشعب بالنخوة والحماسة والإخلاص للوطنية الجزائرية والمتدفق ثورة واندفاعاً لتحقيق فكرة المغرب العربي الموحد والمتجاوب مع الأفكار العربية، الطموح إلى تحقيق الوحدة العربية نشأ وترعرع الأدب الجزائري، وكان صوتاً قوياً شجاعاً مفصّلاً عن كل هذه

¹ - التقديم، 1907/12/26م.

الأفكار مُعبراً بصدق عن المرحلة التي عاشها في مغتربه الآتي متجاوباً مع الأحداث القريبة والبعيدة. لهذا بادر في سنة 1914م إلى دعم ومساندة رفيقه في العمل الصحفي عمر بن قدور الذي دعا إلى تأسيس (جماعة التعارف الإسلامي لأهالي شمال إفريقيا)¹، وكانت ذو الفقار بعمرها القصير زاخرة بالصور النموذجية لما يمكن أن تكون عليه وحدة الشعور بين أبناء المغرب العربي، وفي إطار المساندة الشعبية بين مفكري وأدباء المنطقة لم يُخفي عمر راسم إعجابه الشديد بموقف التونسيين يوم أعلنوا مقاطعتهم الاقتصادية لليهود جزاءً للعداوة التي أظهروها «ضد سيادة الباي والأمة الإسلامية التي حمتهم منذ كانت أوروبا تذبحهم كما يذبح الخنزير قرباناً لآلهتهم»²، وهو يرى بأن هذا العمل يتلج الصدر وبملاً القلب رضى وطمانينة لأنه سيكون درساً لا ينسى، فهو عبرة لأولئك اليهود الذين ما يزالون يعاملون المسلمين معاملة عدائية سافرة، وهو عبرة في الوقت نفسه للمسلمين الذين ما يزالون يحسنون الظن باليهود، وهو قبل هذا وذاك عبرة للذين يظنون «أن المسلمين أموات غير أحياء لا يحسون ولا يعملون، ولا يظلمون ولا ينتصرون»³ وهو أخيراً «خير للوطن، وارتباط للقلوب وحثٌ على العمل الجماعي في سبيل المصلحة العامة»⁴.

وفي إطار التعاون والتنسيق الصحفي دائماً نجد عمر راسم يتوجه بالنصح لكل من يصدر جريدة جديدة كما فعل وهو يهنئ الشيخ الطيب بن عيسى بصدر جريدته (المشير) قائلاً له: «أرجوكم، نعم الأخ أن تجعل مشرب الجريدة انتقادياً

¹ - الفاروق، ع20، 1914/07م.

² - المرجع السابق، (من مقاله في السجن عام 1916م)

³ - نفسه.

⁴ - نفسه.

وخادمة للدولة العليّة، وأن تنتقد عليها في كل ما تراه حسناً... أيها الأخ اعلم أنك جزائري الجد فلا تغفل عن وطنك ودافع عنه بقدر الطاقة ولا تخش من الله لومة لائم، وكن مع نصر الله يكن معك، وعلى الوطن يعينك الله، وحب الوطن من الإيمان¹ لقد كان عمر إذن من الوطنيين الجزائريين الذين ساهموا خلال فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى بكثافة في الساحة الثقافية المغاربية، حيث كان محسوباً على التيار الإصلاحى الإسلامى وحركة الجامعة الإسلامية، ودوره يبرز أكثر في العمل الصحفي وتصوّره كان لا يقف عند بلده الجزائر بل تجاوز ذلك إلى المغرب العربى والإسلامى ككل² وكان على اتصال وثيق بعلماء تونس ومفكرها فيعتقد أحياناً ندوات أو يُلقى حوارات، كما كان صحفىو تونس ومفكرها يحترمونه ويتقون في علمه.

د / قضايا التنصير والتجنيس والإصلاح الدينى:

يعتبر عمر راسم أيضاً أول الذين قاوموا كل حركات الفرنسة والمسخ، حيث نجد في آرائه التي كان يبيتها في الصحف التونسية وحتى في صحفه هو رفضاً صريحاً لكل محاولات الدمج والامتزاج بالعنصر الغالب وتشبهاً قوياً بالمقومات الأصيلة للشعب الجزائري المسلم، حيث يقول عنه عابد الجلالى في تقويمه: « لقد كان عمر راسم يعارض ويتحدى المتفرنسين الذين كانوا يسمون "النخبة" حيث دعا

¹ - المشير، " تهنئة المشير، 1914/01/08"

² - بلقاسم (محمد)، الاتجاه الوحدوى فى المغرب العربى (1910-1954)م، ماجستير فى التاريخ الحديث والمعاصر معهد التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر: (1993-1994)م، ص22.

إلى نبذ فكرة التجنيس، ودعا أيضًا إلى ربط الجزائر بالعالم العربي الإسلامي لأنه لا مناص لهم من ذلك»¹ حيث هاجم سنة 1908م منح النياشين إلى الجزائريين من يد السلطات الفرنسية مقابل الخدمات والولاء على حساب الشعب والمصلحة الوطنية، كما هاجم مساوئ الحضارة الغربية، وانتقد الفئة المندمجة لأنهم «ولوا وجوههم شطر المتسلط علينا»، واتبعوا سياسة الفرنسيين المتغلبين على الوطن، ولعل عمر راسم كان يُعارض ويتحدى المتفرنسين الذين كانوا يسمون النخبة حيث دعى إلى نبذ فكرة التجنيس ودعى إلى ربط الجزائر بالعالم العربي الإسلامي لأنه لا مناص لهم من ذلك²، ولعله أيضًا أول المصلحين الوطنيين الذين أماطوا اللثام عن حجب الطرق الصوفية الضالة وما يجري في خباياها، وتلقى الأمرين في سبيل أداء هذه الرسالة كما وقفت بجانبه أقلام بليغة حاصرت زيفها بالأدلة العقلية والنقلية.

كذلك كانت الجزائر تعيش في العشر الأوائل من القرن العشرين تمللا أقرب إلى الغيبوبة منه إلى اليقظة، وخطوة أقرب إلى الوقوف منها إلى الأقدام، فقد صاحبت رواسب اليأس الماضي بوادى حكم تيسم بشيء من الديمقراطية وبصيص من الالتفات إلى غير توطيد قدم الاحتلال الفرنسي، في عهد ولاية جونا (1900-1911م) على الجزائر، هذا المظهر الصوري للديمقراطية استمال طبقة من العلماء استطاع المستعمر أن يؤلف منهم سدنة الدين الإسلامي في الجزائر، ويُنصبهم أوصياء على مساجده وكراسي الإفتاء فيها، وتلك التي كانت أعناقها تنقطع تطلعا إليها منذ دخوله إلى الجزائر.

¹ - تقويم الأخلاق، ص 48

² - Merad (Ali), Le Réformisme musulman Algérie, Paris : 1967, P.48.

وعلى عتبة المستعمر التقت (الطرقية) المنحرفة بالدين الرسمي فضمنت له الطرقية قيادة الجماهير في القرى والأرياف وضمن له المشايخ الموظفون عواصم البلاد بتريعهم على كراسي الإفتاء والتعليم فيها، وإذا كانت الخدمة العسكرية قد ولدت الهجرة إلى الشرق فرارا من الجحيم ثم العودة إلى الميدان بسلاح أقوى فإن الانحراف الديني ولد هو الآخر عند ذوي البصائر الحية والأبصار النافذة إلى المستقبل البعيد شعورا بالحاجة الملحة إلى إصلاح ديني، وفي هذا المنعرج الخطير يبرز عمر راسم بقلمه الثائر على الوضع والمتألم للحالة التي يتردى الإسلام فيها، فاكتمت مقالاته الأولى صبغة المعالجة الحية لمشاكل الساعة.

الخاتمة:

كان أبا منصور الصنهاجي عبدوياً خالصاً مهتماً بقضايا الإصلاح الديني كمحاربة بعض الأقلام الطرقية الداعية للخرافة والبدع وقضايا التنصير والتجنيس، مكافحاً في حياته مكرساً لوطنيته وقوميته في نضاله الصحفي، صريحاً وجريئاً في معارضته للتجنيد الإجباري وللظروف السياسية والاجتماعية السيئة للبلاد، وأكثر من ذلك كان إنسانياً مرهفاً الحس تفاعل مع قضايا الأمم الأخرى التي لا يتفق معها في الدين واللغة والمذهب، وفي الأخير كان وبما لا يتناقض مع المجالات الأخرى التي أبدع فيها بقلمه منافعاً عن قضايا أمته الكبرى كقضية فلسطين، والوحدة العربية واتحاد الشمال الإفريقي. ومن هنا نستطيع القول بأن عمر راسم كان من رواد الفكرة الإصلاحية في الجزائر التي أعطاها من حرارة قلبه وثبات إيمانه، ذلك الصدق وتلك الحرارة التي غدت الطابع الذي ميّز كتابات راسم ومن هنا أيضاً نتأكد بأن الإصلاح والثورة في الجزائر، كانت لهما الجذور المتينة التي

ضربت بجذورها إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، وإن هذه الجذور كانت تتدفق فيها الدماء من مُهيج رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

قائمة المصادر والمرجع المعتمدة:

● الكتب:

4. الإبراهيمي (محمد البشير)، سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الجزائر: دار الكتب 1982م.
5. أبو القاسم (سعد الله)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، الجزائر = دار البصائر، 2007م.
6. بلقاسم (محمد)، الاتجاه الوحدوي في المغرب العربي (1910-1954)م، ماجستير في التاريخ، جامعة الجزائر، (1993-1994)م.
7. الجابري (محمد الصالح)، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس، تونس: الدار العربية للكتاب 1983م.
8. الخرفي (الصالح)، الجزائر والأصالة الثورية، الجزائر: ش.و.ن.ت، 1977م.
9. الزاهري(السعيد)، الإسلام في حاجة إل دعاية وتبشير، ط2، دمشق: مطبعة الاعتدال، 1934.
10. العابد (الجلالي)، تقويم الأخلاق، قسنطينة = المطبعة الإسلامية، جانفي 1927م.
11. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ط2، بيروت، مؤسسة نويهض الثقافية، 1980.
12. محمد (شريف)، اللوحات الخطية في الفن العربي المركبة بخط الثلث الجلي، أطروحة دكتوراه، معهد التاريخ- جامعة الجزائر.
13. المدني (أحمد توفيق)، كتاب الجزائر، الجزائر: دار الكتاب، 1963م.
14. المدني(أحمد توفيق)، حياة كفاح (مذكرات)، ج2، الجزائر: الشركة الوطنية الجزائرية للنشر، 1976م.
15. ناصر(محمد)، عمر راسم : المصلح الثائر، " الثقافة، ع 34، الجزائر: أوت / سبتمبر 1976م.
16. ناصر(محمد)، عمر راسم المصلح الثائر، الجزائر: منشورات وزارة الثقافة والسياحة، 1984.
17. Merad (Ali), Le Réformisme musulman Algérie, Paris : 1967.

● المقالات:

1. التقدم، 1907/12/26 « رأي حر ».
2. التقدم، "تصيحة الأخ"، 1908/11/30م
3. التقدم، الأزمة الجزائرية"، 1908/01/23م
4. الحق الوهراني، ع4، 1912/07/13م

5. ذو الفقار، 1913/10/05م.
6. ذو الفقار، ع1، (15 / 10 / 1913)،
7. ذو الفقار، ع2، 1913/10/26م
8. ذو الفقار، 1914/06/14م.
9. ذو الفقار، ع 16، 1914/06/28
10. العالم الإسلامي، مج2، أكتوبر 1908م
11. الفاروق، ع20، 1914/07
12. لسان الشعب، 1928/10/27
13. المباحث، 1945/04/13م
14. مرشد الأمة، ع4، 1907/07/23م
15. مرشد الأمة " الجزء من جنس العمل "، ع14، 1909/12/05.
16. مرشد الأمة، ع 4، 1909/07/23
17. مرشد الأمة، 1909/08/06
18. مرشد الأمة، 1909/08/27
19. مرشد الأمة، 1909/09/09
20. مرشد الأمة، 1909/12/05
21. المشير، " تهنئة المشير، 1914/01/08"
22. المنار، مج17، ج4، مصر : ربيع الآخر 1332هـ، مارس 1914.